القسم الثاني

الدعوة الإسلامية – الدور المكي – الدور المدني

الدعوة الإسلامية والدور المكي

بدأت الدعوة الإسلامية في العام ٦١٠م على فترة انقطاع للرسل بين عيسى عليه السلام وبين عودة الاتصال بين السماء والأرض . وكان ذلك في غار حراء ، عندما بلغ الرسول ﷺ السن الذي تعتبره العرب سن كمال ؛ أي الأربعين من عمره على التوقيت القمري . والبداية لم تكن إلا تعريف لهذه الرسالة ثم توالى نزول القرآن متدرجاً بالدعوة من إنذار العشيرة الأقربين[١] ، إلى إنذار القوم الذين أراد الله تعالى أن تكون الدعوة فيهم ، واختارهم الله تعالى لحملها إلى الناس كافة في قوله تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ [الحجر] . وهكذا توالت الأوامر من الله تعالى على نبيه خلال البدايات الصعبة لهذه الدعوة ، وصد الذين كان بيدهم الأمر والحكم والسلطان وكل ما جرى بعد ذلك من أحداث .

ولقد وردت صفة الرسول ﷺ في الإنجيل ؛ حيث بشر الحواري يحنس بالرسول ﷺ قال ابن إسحاق : وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى ابن مريم جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل- من صفة رسول الله ﷺ مما أثبت " يحنس " الحواري لهم . حيث نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام في رسول الله ﷺ إليهم أنه قال : " من أبغضني فقد أبغض الرب، ولولا أني صنعت بحضرتهم صنائع لم يصنعها أحد قبلي وكانت لهم خطيئة ، لكن من الآن بطروا وظنوا أنهم يغرونني وأيضاً للرب . ولكن لا بد أن تتم الكلمة في الناموس : أنهم أبغضوني مجاناً : أي باطلاً [٢] .

فلو قد جاء " المنخمنا " هذا الذي يرسله الله إليكم من عند الرب ، وروح القدس هذا الذي من عند الرب خرج ، فهو شهيد علي وأنتم أيضاً ، لأنكم قديماً كنتم معي في هذا قلت لكم لكي لا تشكوا " والمنخمنا بالسريانية : محمد : وهو بالرومية البرفليطس ﷺ [٣] والله تعالى قد أخذ الميثاق على الرسل بالإيمان به ﷺ .

---

(١) انظر كتابنا : الدعوة في العشيرة الأقربين - قيد الطبع .

(٢) أي باطلاً : وكذلك جاء في الحكمة : يا ابن آدم علم مجاناً كما عُلمت مجاناً : أي بلا ثمن . وفي وصايا الحكماء : شاور ذوي الأسقان والعقول يعطوك من رأيهم مجاناً ما أحذوه بالثمن ، أي بطول تجارب .

(٣) سيرة ابن هشام ، طبعة دار الهناء ، ٣٦/١ .

عن محمد بن إسحاق المطلبي قال : فلما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة بعثه الله[1] رحمة للعالمين ، وكان للناس بشيرا . وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم . فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه . يقول الله تعالى لمحمد﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي ((أي فقال ما حملتكم من عهدي)) قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ** (٨١) ﴾ [آل عمران] .

فأخذ الله ميثاق النبيين جميعاً بالتصديق له ممن خالفه ، وأدوا ذلك إلى من آمن بهم وصدقهم من أهل هذين الكتابين [2] .

حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها وذلك الشهر شهر رمضان : خرج رسول الله ﷺ إلى حراء ، كما كان يخرج لجواره ومعه أهله . حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله ﷺ : فجاءني جبريل ، وأنا نائم ، بنمط[3] من ديباج[4] فيه كتاب ، فقال : اقرأ، قال : قلت : ما أقرأ ؟ [5] قال : فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، قال : قلت : ما أقرأ ؟ قال فغتني به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قال : قلت ماذا أقرأ ؟ ما أقول ذلك إلا افتداءً منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي . فقال : ﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** [6](٥)﴾ [العلق] .

---

(١) ذكر ابن إسحاق : أن رسول الله ﷺ بعث على رأس أربعين من مولده عليه السلام وهذا مروي عن ابن عباس ، وجبير بن مطعم ، وقبات بن أشيم ، وعطاء ، وسعيد بن المسيب ، وأنس بن مالك ، وهو صحيح عن أهل السير والعلم بالأثر . وقد روي أنه نبئ في الأربعين وشهرين من مولده . وقيل لقبات بن أشيم : من أكبر .. ؟ أنت أم رسول الله ﷺ ؟ فقال : رسول الله أكبر مني ، وأنا أسن منه . وولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووضعت بي أمي على ورث الفيل ، ويروى : خزق الطير فرأيته أخضراً محيلا ، أي قد أتى عليه حول . وفي رواية البكائي من هذا الكتاب أن رسول الله ﷺ قال لبلال : لا يفتك صيام الاثنين فإني قد ولدت فيه وأمرت فيه " انظر الروض الأنف للسهيلي " المصدر السابق ، حاشية ص ٢٣٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٦ .

(٣) النمط : وعاء كالسفط .

(٤) فيه دليل وإشارة تبين أن هذا الكتاب يفتح على أمته ملك الأعاجم ، ويسلبهم الديباج والحرير الذي كان زيهم وزينتهم ، وبه أيضاً ينال ملك الآخرة ولباس الجنة وهو الحرير والديباج .

(٥) وفي رواية : ما أنا بقارئ أي : إنّ أمي ، فلا أقرأ ولا أكتب .

(٦) وكلها بمعنى واحد وهو الخنق والضم .

قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني ، وهببت من نومي ، فكأنما كتبت في قلبي كتاباً . قال : فخرجت حتى إذا كنت في وسط من الجبل سمعت صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر : فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه[1] في السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء . قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك ، فمازلت واقفاً ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي . حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها ، وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف عني [2] .

هكذا كانت بداية دعوة الإسلام .. والأهمية في هذه الرسالة أنها خاتمة الرسالات وجامعة الأحكام ، وكاملة القصد والمحتوى ، ومهيمنة على ما سبقها من الرسالات ، ومبينة الضلالة من الهدى عند من سبق ، ومصير الضالين أو المهديين فيمن سيلحق ، بينة واضحة ، خالدة ، باقية ، شاملة ، صالحة لكل زمان ومكان . هذه البداية في غار حراء نزل أو التنزيل ، ومن ثم فقد توالت الآيات في ثلاث وعشرين سنة من عمر الزمن ، أو عمر محمد ﷺ في الرسالة ، حيث تم تكليف منتسبي أمة الإسلام الإيمان بهداه وبطاعته : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا** ﴾ بداية دعوة الإسلام القراءة والعلم والقلم ، والعلوم الخفية عن نظر الناس : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ** ﴾والتأكيد على فاعلية العقل حتى حدوده ثم فاعلية القلب اللامحدود .

إنها الدعوة التي تعتبر أعظم ما أنجز البشر وستبقى أعظم ما أنجز البشر ، حمل لقوم هم غير البشر فيمن سبق وفيمن سيلحق . لقد دام العهد المكي ثلاث عشرة سنة قسمت إلى قسمين الأول: ومدته ثلاث سنوات عرف بالعهد السري ؛ إذ أن الدعوة ما كانت لتخرج عن نطاق المخلصين الخلص الذين يعتمد عليهم إيماناً وحفظاً للسرية التامة ، حيث إن الله تعالى أراد لهؤلاء أن يمتحن قلوبهم للتقوى ، إذ أن الدعوة ليست عادية أو كمثل الأمور الطارئة ، لكنها الدعوة إلى الله تعالى ، وانقلاب في المفاهيم والمعتقدات ، طرح عبادة الأصنام المرئية الماثلة أمام أعين الناس في كل زاوية من زوايا البيت الحرام ، وفي جوفه حتى لم يبق مكان لمزيد ، إلى دعوة لله تعالى الخالق البارئ المصور والإيمان به في القلب ، تلك النطفة التي إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله – ألا وهي القلب .

---

(١) وفي حديث جابر أنه رآه على رفرف بين السماء والأرض ، ويروى : على عرش بين السماء والأرض . وفي حديث البخاري الذي ذكره في آخر الجامع أنه حين فتر عنه الوحي كان يأتي شواهق الجبال يهم بأن يلقي نفسه منها وكان جبريل يتراءى له بين السماء والأرض يقول له: أنت رسول الله وأنا جبريل .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ، ١/٢٣٩ فما بعد .

الإيمان بالله والتخلص من أدران الجاهلية ، والأمر الآخر الإيمان بالرسول الذي يوحي له من عند الله ، في تصور مثالي أيضاً أنه يتلقى من غير البشر نبأ الوحدانية ونبذ الشرك ، وأموراً أخرى كثيرة حوتها آيات القرآن المكية ، القصيرة القوية المعجزة ، البليغة ، المصورة للأحداث بتعبير خارق لكل حركة لسان منتظمة ، متوافقة بسلاسة وبيان ، لا يمنح للإنسان بطاقته وعبقريته فرصة للمقارنة بينها وبين ما يسمع من البشر ، إنها آيات الله تعالى في كتابه العزيز[1] . تنبئ عن أمور ما سمع بها الناس ، أو أنها عبارة عن معارف تداولها الذين تلقوها في ذاك الوقت ، أو الآخرون الذين سيجيئون من بعدهم حتى يبقى القرآن هو الخالد ، وأقوال الناس تذهب جفاء بدون أثر ، يتفاعل في النفوس فيخلد فيها .

هذه المرحلة من الدعوة في السر ليست دائمة ولكنها مرحلة لا بد منها حتى يتمكن الرسول ﷺ من تربية النفوس القادرة على الثبات ؛ إذا ادلهم الخطب وزاد عدد الرافضين ، الذين ستصلهم هذه الدعوة في حين من الأحايين وقتها أو ما يلي وقتها من أوقات أو أمم تصلها دعوة الإسلام فتكون لها نوراً ، وتدفعها لأن تقوم بنشرها عن إيمان ويقين يقدم فيه المجاهد نفسه وماله في سبيل الله .

ضرورة هذه المرحلة تأتي في بداية الدعوة لوضع حجر الأساس القادر على تحمل البنيان القادم مهما كبر أو تطاول . وقد نجحت تجربة هذه المرحلة ، فقد ضمت في صفوف الدعوة شباباً ورجالاً كان لهم في تاريخ الإنسانية بعد ذلك الأثر الذي خلد هذه الدعوة ، وأبقاها إلى أن يشاء الله تعالى لخلقه أمراً . وعلى اختلاف الألسنة والأشكال والألوان والمواقع والأزمنة . وتزيد في كل يوم ولا تنقص ؛ بزيادة تتناسب ومسيرة الزمان ، وأعمار الأمم ، وتجارب الشعوب . هذه المرحلة كانت جزءاً بسيطاً من الدعوة ، لم يكن فيها أكثر من الإنذار والبشرى ، وخبر الغابرين من المكذبين الذين كذبوا أنبياءهم ورسلهم ، فأصابهم ما أصابهم من عذاب الله أو نعمته التي رافقت المصدقين ، ونقمته التي انصبت على الرافضين الكافرين . لم يكن يعلم بعد هؤلاء الرجال - أو النساء - الخلص ، ماذا من فضل آت وهو عظيم ، ولكنهم آمنوا ابتداء بما ابتدأ به التنزيل ، وانتظروا حتى يروا ما يوعدون لصادق في كل يوم معجزة ، وخبر وتسجيل في كتاب الله ذلك الفضل الذي كان يعدهم بيوم لا ريب فيه ، ليس للمخلوقات وقتها إلا سؤال الخالق الرحمة واللطف بما جرت به المقادير .

---

(١) انظر كتابنا : - صفة كتاب الله في كتاب الله - قيد الطبع .

ثم تلي ذلك مرحلة أخرى ، هي الصلة المباشرة مع المحيط ضمن أم القرى وما حولها والإنذار جاء في هذه المرحلة أيضاً متوافقاً متجانساً في ترتيب مرحلي واع لكل مرحلة ، لا يقف عندها سواء أصابها النجاح المطلوب ، أو الفشل الغير مرغوب فيه ، فلا بد من الانتقال إلى المرحلة التالية، بكل عزم وتصميم على تحمل تبعاتها ، وتحمل كل التحديات التي ستقف في وجهها - لا عودة لما سبق - بل محاولة لحاق الأولى بالثانية ، والبناء على ما يمكن أن يتوفر في كل مرحلة من المراحل التي لا بد منها لاستكمال البناء ، فمن كلمة اقرأ إلى آية : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة : ٣] ، إنه لفترة قصيرة إذا قيست بعمر الزمن لكنها في الواقع أقدس عمل قام به البشر على وجه الأرض ، حتى استحقوا أن يكونوا رواد خير أمة أخرجت للناس ، والبانون الأساسيون لهذه الأمة ، إن من كمال دعوة الإسلام أنها توافقت مع أوامر الله تعالى في تقديم ما تحتاجه الجماعة ؛ التي تتشكل بعناية الله تعالى وأوامره ، وسواعد المصطفىﷺ ، وتعليماته التي تلقاها عن الوحي ليكون البناء دائم الوجود متوافقاً غير متناقص يفهمه الذين يتلقونه ، فقد نزل بلسانهم المبين المعجز الذي لا يقدر أحد مهما حاول أن يصل إلى بيانه وإعجازه ؛ مهما حاول المحاولون وأرجف المرجفون ، وأعطى العباقرة والمتقدمون على أقرانهم بالبلاغة والفصاحة .

وجاءت المرحلة التالية - مرحلة الجهر بالدعوة - وعلى مراحل جزئية أيضاً ، بدأت بالأقربين، وانتقلت إلى العموم ، وذلك لرصد النتائج التي تحصلت في كل مرحلة من قبول ورفض وانتظار ، فبدأت بالعشيرة الأقربين : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**﴾ وهم قد لا يزيد عددهم عمن آمن بالفترة السرية إلاّ قليلاً ، لكن التثبت من هذه المجموعة المحيطة بالرسول ﷺ ومدى استجابة أفرادها لهذه الدعوة،حتى يكون البناء أقوى وأشد،وخاصة أن مجتمعاً كالمجتمع العربي يعيش على قانون القبيلة والعشيرة ، والثأر والنصرة والدفاع المشترك عن أفراد العشيرة،وكانت الاستجابة متفاوتة بين الأهل الأقربين، فمنهم من آمن وصدق ونذر نفسه للدعوة بكل أحمالها وتبعاتها وآثارها ، ومنهم من كفر وذهب إلى أبعد الحدود ، فعادى وآذى ، وصد عن ذكر الله بإصرار كبير وعناد مرير ، ومات على ذلك،ومنهم من أسلم بعد حين . ومنهم من لم يقبل الدعوة ، ولكنهم بقوا على قاعدتهم المطلقة من نصرة العشير، والذود عنها،وتحمل التبعات التي سيكون لهؤلاء دور واضح وبارز،فمنهم من مات على كفره،ومنهم من مات على إيمان ويقين عندما تمكن الإيمان أن يهزم بواعث الشرك وتفاعلاته في النفس الإنسانية،لقد كانت الدعوة في العشير متفاوتة ، قسمت العشير

إلى جماعات وتوجهات مارسها كل بالقدر الذي بقي فيه ، ومنهم من طال به الأمد ردحاً طويلاً من الزمن ، ومنهم من كان عناده قصيراً إلى درجة واضحة وجلية [1] .

أما المرحلة التالية فكانت الدعوة في جميع الأصعدة ، وربما ضمن المدينة التي ضمت هذه الدعوة، وكانت مهدها ، وعاندت طويلاً ، لكنها عادت إلى مسار الدين الصحيح وليس بين الفترتين كبير زمن ، فقط ما بين الجهر بالدعوة ودخول الناس أفواجاً في دين الله – فتح مكة – زهاء خمس عشرة سنة تزيد أو تنقص ليحمل هؤلاء بعد ذلك هذا الدين إلى العالم بقوة وثبات وعبر طُوي التاريخ في تلك الحقبة طياً عجيباً ، ما زال المؤرخون عاجزين عن تصوره وتحليل آثاره؛ رغم انقضاء ما يقارب الألف والأربعمائة سنة من عمر الزمن ما بين هذه المرحلة واليوم .

ومع كل ردود الفعل التي تحصلت من جراء المرحلة الأولى من العهد الثاني " الدعوة في العشير الأقربين " فإن الرسول ﷺ لم يقف كثيراً عند هذه المرحلة ، رغم ردود الفعل القاسية لدى البعض كأبي لهب وأولاده وزوجته ، وكأبي سفيان بن الحارث وآخرين ، فإن الرسول ﷺ الذي يتلقى الأمر من الله تعالى وعليه أن يفعله دون انتظار الذين تخلفوا عن الركب ، وآثروا العيش في محيط الموروثات من المعتقدات السابقة . لم ينتظر باني الدعوة كثيراً – رغم محاولاته الجادة – بكسب هؤلاء الأشخاص بل تركهم وانطلق " إلى المرحلة التالية .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾[الحجر] لتكون الدعوة عامة ، ولتصل إلى كل سامع في مكة أم في غيرها .. والحدود كانت مكة وكان اللقاء الدائم بين سكانها وبين الوافدين إلى الحج فيها ؛ لتنفيذ أمر الله تعالى بالجهر المعلن للناس كافة . إن هذه المرحلة قد تصدى أقرب الأقربين الذي يعيش في موروثات الجهل والكفر أبي لهب ليؤلب الناس على النبي ، ويتهمه بالكذب ، وهو أعلم به من سواه فهو ابن أخيه وما عبئ النبي بهذا – أو سواه – فإن مقتضيات المرحلة الاستمرار بها ، والالتقاء بالوفود ، ومحاولة تخليص أتباعه من العذاب ، حيث أذن لهم بالهجرة بدينهم ، لحماية هذه المجموعة المنتقاة من عاديات القهر ، والظلم ، في أرض يملكها ملك لا يظلم عنده أحد . وبقي النبي في بناء المرحلة في مكة صامداً ، ثابتاً ، معتمداً على تأييد الله تعالى وحفظه له ليتم نوره ، ومدافعة أهله الذين يعرفون نظام المرحلة " الحياة القبلية " بأدق أسرارها ، ويتعاملون مع الآخرين بهذا الأسلوب الأمثل في تفاعلات البشر ومعتقداتهم وقيمهم .

العهد المكي الذي دام ثلاث عشرة سنة ، كان أطول من العهد المدني الذي بنيت فيه الدولة بثلاث سنين فقط ، كان فيه عذاب المؤمنين فرادى ، ولكنه كان الأطول لاستغراق زمن كاف

(١) انظر كتابنا : ((الدعوة في العشيرة الأقربين)) قيد الطبع .

لبناء المؤمنين ؛ الذين لا يحتاج النبي ﷺ معهم في المرحلة التالية لمثل هذا الجهد ، فبناء الإنسان أقسى من بناء الأمم ، والمصلحون الذين يظنون أن بناء الأمم صعب فيتيهون ، هذه التجارب ماثلة ؛ فبناء الفرد أقسى وأحوج للجهود الجبارة ، فإذا أحسن بناء هؤلاء ، فبناء الأمم لا يستغرق بعدها كبير وقت ، إذاً طول العهد المكي كان ضرورياً ليصبح المظلومون قادة ، قادرون على تحدي ظالميهم ، وإنهائهم بالصورة التي تخرجهم من جاهليتهم . إما بالموت الذي لم يشأ الله تعالى لأصحابه الحسنى ، أو بالإسلام حيث إن هؤلاء يملكون الطاقات الخلاقة ، واستخدامها في بناء الأمم وقيادتها أمر جيد ومقبول ، فعمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وأبو سفيان بن الحارث ، قد كانت لهم طاقات ظهرت في عداوة الإسلام والوقوف في وجهه ، حتى أذن الله لهم فكانوا المبدعين كل في مجاله في إتمام بناء الدعوة ونشرها بعد عهد النبوة ، وكانوا وآلاف غيرهم أمثلة صادقة في العطاء والبذل والعلم ، والعبقرية الفذة في بناء الأمة .

ونورد باختصار شديد أهم الأحداث التي جرت في هذا العهد ، وكانت كلها منطلقات للنصر، رغم أن بعضها كان من القساوة ، والعداوة ، والصد ، في مكان كبير ، لكن الله تعالى قد ذللها وجعل منها درجات للنصر واضحة وبارزة .

وبعد أن تنزلت آيات القرآن الأولى في غار حراء عاد بها النبي ﷺ وهي محفورة في قلبه ، وقص ما جرى على خديجة بنت خويلد زوجته رضي الله عنها فصدقت به وآمنت معه ، وشجعته، وأنكرت أن يكون ذلك كهانة ، فالنبي يصدق الحديث ، ويصل الرحم ، ويؤدي الأمانة، وهذه ليست من صفات الكهان ، وتَبَتَ إيمانها حديثها مع ابن عمها ورقة بن نوفل ، الذي أكد صدق الخبر ، وأكد للنبي ﷺ أنه النبي المرتقب ، وتنزل عليه ما كان من شأن موسى وعيسى عليهما السلام ، وأسلم علي بن أبي طالب وهو فتى حدث لا يزيد عمره بحال عن اثني عشر عاماً ولا ينقص عن عشر مع اختلاف الروايات ، كما أسلم زيد بن حارثة مولاه ، الذي يعيش في كنفه ، والذي آثر عليه أبويه والرسول لم يبعث ، فأشهد الناس على أنه بمقام ابنه فعرف بزيد ابن محمد ، وأسلم أبو بكر الصديق الرفيق الحميم والمخلص للرسول ﷺ ، وكان إسلامه سبباً لإسلام العديد من الصحابة الأوائل رضي الله عنهم ، منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله . جاء أبو بكر بهؤلاء إلى النبي ﷺ حين استجابوا له فأسلموا وصلوا وكان رسول الله ﷺ يقول :ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا

كانت فيه عنده كبوة [1] ونظرةٌ وتردد ؛ إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما علمَ عنه حين ذكرته له وما تردد فيه ، قال ابن إسحاق : فكأن هؤلاء النفر الثمانية الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدَّقوا رسول الله ﷺ بما جاءه من الله [2] .

قال ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها " افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أول ما افترضت عليه ركعتين ركعتين كل صلاة ، ثم إن الله تعالى أتمها في الحضر أربعاً وأقرها في السفر على فرضها الأول ركعتين . وإن الصلاة حين افترضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة ، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين ماء فتوضأ جبريل عليه السلام ، ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل توضأ ، ثم قام به جبريل فصلى به وصلى رسول الله ﷺ بصلاته ، ثم انصرف جبريل ، فقام النبي ﷺ يعلم خديجة وأصحابه الآخرين الوضوء والصلاة .

واتفق العلماء على أن الصلاة ركعتان في الغداة ، وركعتان في العشي ، حتى كان الغداة من يوم الإسراء والمعراج ، فجاء جبريل إلى النبي ﷺ فصلى به الظهر حين مالت الشمس ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثله ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب الشفق ، ثم صلى به الصبح حين طلع الفجر .

ثم جاء فصلى به الظهر من غدٍ حين كان ظله مثله ، ثم صلى به العصر حين كان ظله مثليه ، ثم صلى به المغرب حين غابت الشمس لوقتها بالأمس ، ثم صلى به العشاء الآخرة حين ذهب ثلثي الليل الأول ، ثم صلى به الصبح مسفراً غير مشرق ، ثم قال : يا محمد الصلاة فيما بين صلاتك اليوم وصلاتك بالأمس [3].

وبذلك فقد تحول المؤمنون الأولون لعبادة ربهم في الصلاة ، وخلعوا ما كان برؤوسهم من معتقدات سابقة ، ثم أسلم بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة المخزومي ، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي ، وتحولت داره للقاء المسلمين فكانت المدرسة الأولى في بناء الإسلام ، وأسلم عثمان بن مظعون وأخواه قدامة وعبد الله ، وأسلم عبيدة بن الحارث بن المطلب ، وسعيد بن زيد وامرأته فاطمة بنت الخطاب ، وأسماء وعائشة ابنتا أبي بكر ، كما أسلم كل من عمير بن أبي وقاص وابن مسعود ، وابن القاري ، وصليت بن عمر وأخوه حاطب بن عمر ، وعياش بن ربيعة

---

(١) الكبوة التأخير به وعدم الإجابة .

(٢) ابن هشام السيرة ١ / ٢٥٢ .

(٣) المصدر السابق ١ / ٢٤٨ .

ابن مخزوم وامرأته أسماء بنت سلامة ، وخنيس بن حذافة ، وعامر بن الربيعة ، وعبدالله بن جحش وأخوه أحمد ، وجعفر بن أبي طالب وامرأته أسماء بنت عميس ، وهكذا توالى إسلام العديد من النساء والرجال ، فسار بهم النبي ﷺ في المراحل التي ذكرناها .

قال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من النساء والرجال،حتى فشى الإسلام بمكة وتحدث بها،ثم إن الله أمر رسوله ﷺ أن يصدع بما جاء منه وأن يبادي الناس بأمره، وأن يدعو إليه، وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أمر الله تعالى بإظهار دينه ثلاث سنين من مبعثه ﷺ . ثم قال الله تعالى له :﴿ **فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ (٩٤)**﴾ [الحجر]وقال تعالى له : ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)**﴾[الشعراء] وقال تعالى ﴿ **وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩)**﴾ [الحجر]وكان أصحاب النبي ﷺ إذا صلوا ذهبوا في الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله ﷺ في شعب من شعاب مكة ، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون ، حتى قاتلوهم ، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذٍ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجه ، فكان أول دم أُهريق في الإسلام .

ووقف زعماء قريش من الدعوة موقف المعادي والصاد عن ذكر الله ، فبدأت عمليات التعذيب والتنكيل فيمن أسلم ، وجاءوا إلى أبي طالب لمنع ابن أخيه ، فصدهم وثبت أبو طالب في تأييده للنبي رغم عدم إسلامه ، وقد لقي الرسول ﷺ الكثير من العذاب والعنت من قومه ، ثم جاء إسلام حمزة بن عبد المطلب نصراً كبيراً للمسلمين ودعماً لهم ضد من عاداهم .

وجندت قريش كل طاقاتها ، القوة ، والسياسة ، والمحاورة ، والأفكار ، في محاولات يائسة لإيقاف الرسول ﷺ عن دعوته . واستخدمت القوة ضد المستضعفين ، وبكافة الوسائل المتاحة لذلك ، ثم استخدمت أسلوب التفاوض مع أبي طالب مرات عدة ، عله يستطيع أن يكف ابن أخيه عن دعوته ، وأرسلت للرسول من يحاوره أمثال عتبة بن ربيعة وغيره ، ولم تترك قريش طريقة للإقناع أو التهديد إلا واستخدمتها .

كان من أبرز الأحداث بين الرسول ﷺ وقريش أنهم دعوه بعد أن اجتمعوا جميعاً في الكعبة ، ليقدموا عروضهم عليه ، وكان في هذا الاجتماع جميع الأسماء من جميع البطون ، الرسول ﷺ جاء فرحاً بهم أن يكون الله قد أحدث في قلوبهم أمراً ، فلما جاءهم وكان ﷺ حريص يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم فقالوا له : يا محمد ، إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك ، فقد شتمت الآباء ،

وعبت الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا له - وإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعناه لك من أموالنا حتى تكون أحسننا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك رأي تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن "رئيا " - فربما كان ذلك ، بذلنا لك من أموالنا في طلب الطب لك حتى نبرئك منه أو نعذر فيك . فقال لهم رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً ، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ، ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به ، فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فلما صد الرسول ﷺ قريشا بهذا الرد ، عرضوا أن يأتيهم بمعجزات كتفجير الأنهار ، وتوسيع الأرض عليهم ، وأن يبعث لهم الموتى ـ خاصة قصي بن كلاب ـ ليصدقوه إن صدقه الموتى المطلوب أن يبعثهم . فقال لهم صلوات الله عليه : ما بهذا بعثت إليكم من الله ، إنما جئتكم من الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم .

واستمروا بطلب المعجزات وجواب النبي واحد يصدقهم بما أنزل عليه فليس ما قالوا من مهمة النبي ﷺ وما أرسله الله بهذا .. فكان يقول : " ما أنا بفاعل ، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا ، وما بعثت إليكم بهذا ، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً ـ أو كما قال ـ فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم " [1] .

وفي محاولات أخرى كان زعماء قريش يحاولون سماع النبي ﷺ وهو يتلو القرآن ويقضون الليل كله يجلسون حول بيته فإذا انفضوا جمعهم الطريق فتلاوموا ثلاثاً حتى لا يعودوا وهم : أبو سفيان ابن حرب ، وأبو جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق [2] ، لقد كان في قرارة هؤلاء الرجال صدق النبي ، لكن الضغوط التي يعيشون تحت ظلها تمنعهم تصديقه ﷺ ، حيث إن أمثالهم قد تمكنوا من التخلص من هذه الضغوط وأسلموا ، كحمزة وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وغيرهما الكثير .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام ١ / ٢٨٦ فما بعد ، يحسن الرجوع إلى الحديث بتمامه .

(٢) المصدر السابق ١ / ٣٠٣ .

ومن الأمور الظاهرة في العهد المكي : الهجرة إلى الحبشة ، لتخليص الناس من العذاب والمضايقة التي يلقونها من قريش واستقبلهم النجاشي" ملك الحبشة " واستأمنهم ، وجاءوا على عدة هجرات وعادوا على دفعات ، وكان آخر من عادوا في السنة السابعة للهجرة عند فتح خيبر، وتعاهدت قريش على مقاطعة بني هاشم،وكتبوا صحيفة وعلقوها بالكعبة،ووافق عليها جميع وجوه القوم ضد أبي طالب وبني هاشم ، فخرجوا من مكة إلى شعاب أبي طالب ومكثوا هناك تحت وطأة الجوع والمقاطعة الشنيعة من قومهم ، ودخل بنو المطلب (أخو هاشم) معهم في القطيعة وانضموا إلى بني هاشم . أما من وقف مع قريش من بني هاشم فهو أبو لهب بن عبد المطلب ،حيث أيد قريشا وساندها على ما فعلت وطالت مدة الحصار حتى أكل المحاصرون ورق الشجر ومنعت عنهم الميرة والأرزاق ؛ حتى نقضها بعضهم وهو حكيم بن حزام الذي بدأ بتمرير بعض الحبوب إلى المحاصرين ، وخاصة لعمته خديجة بنت خويلد ، وآذى القرشيون الرسول ﷺ وكان يدافع عنه بنو هاشم وبنو المطلب ، وكان الخارج منهم أبو لهب ، وقد تعرض النبي لهذا الأذى فصبر واحتسب. وكان إسلام عمر بن الخطاب نصراً كبيراً للإسلام ، وإضعافاً لصفوف قريش وجمعها .

لقد أسلم عدد لا بأس به من العرب فأسلم الطفيل بن عمرو الدوسي ، وأسلم وفد نصارى الحبشة . قال ابن إسحاق : ثم قدم على رسول الله ﷺ وهو بمكة عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى ؛ حين بلغهم خبره من الحبشة ، فوجدوه في المسجد فجلسوا إليه وكلموه وسألوه ، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة ، فلما فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عما أرادوا دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله عز وجل ، وتلا عليهم القرآن فلما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع ؛ فاستجابوا وآمنوا به وصدقوه ، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره . فلما قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش فقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ! بعثكم من ورائكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده ، حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال ، ما نعلم ركباً أحمق منكم ، فقالوا لهم : سلامٌ عليكم ، لا نجاهدكم ، لنا ما نحن عليه وأنتم ما أنتم عليه ، لن نسأل أنفسنا خيراً [1] .

ثم كانت حادثة الإسرَاء والمعراج حدثاً مختلفاً عن الأحداث التي سبقته ، ففيه أسرى بالرسول ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وعرج به إلى السماء في ليلة واحدة وفرضت الصلوات الخمس – كما سبق – بأوقاتها وركعاتها ، وصلى النبي ﷺ بالأنبياء دليلاً على انتهاء رسالات السابقين ، وأصبح الإسلام جامعاً لها من خيرها ؛ منكراً فيها من شرها . وهذه الحادثة شككت

(١) انظر سيرة : ابن هشام – السيرة النبوية ١ / ٢٦١ .

بعض ضعاف الإيمان فارتدوا ، لعدم تمكنهم من استيعاب الحدث على عظمته وانفراد النبي ﷺ به من دون الأنبياء .

– ثم كان لوفاة أبي طالب وخديجة زوج النبي ﷺ في عام واحد هزة لجماعة المسلمين ، فقد كان لهما من الأثر الواضح في الصد والذود عن الإسلام ، والتخفيف من آلام الرسول إذا ادلهم به خطب ، أو صد عن دين الله صاد ، أو تطاول على هذا الدين متطاول ، فإن النبي ﷺ كان يلجأ لهما عند أذى الناس له ، حتى سمي ذلك العام بعام الحزن ، إذ حزن عليهما لفقده سندهما ودعمهما والتخفيف عنه من صد الناس له .

– سعى النبي ﷺ إلى الطائف بحثاً عن نصرة له ، ولكنه لم يجد التجاوب من ثقيف بل إنه صُدَّ وأُوذي .. إذ أن زعماء ثقيف أغروا سفهاءهم وغلمانهم على ملاحقته وضربه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه . وكان بصحبته زيد بن حارثة مولاه ، وخرج منها تعباً ولجأ إلى جدار " بستان " لعتبة وشيبة ابني ربيعة " وأرسلا له قطف عنب مع خادمهم (عداس) الذي كان على النصرانية ، فلما عرف صفته ونبوته آمن به وأسلم .

– وكان النبي ﷺ يعرض نفسه على القبائل في الموسم " موسم الحج " فمنهم من استجاب ، ومنهم من أرجأ ، ومنهم من صد . حسب طبيعة البشر وظروفهم التي يعيشونها . وكان عمه أبو لهب يلحق به ويكذبه بعد كل لقاء مع وفد من وفود الحجاج .

ولما أراد الله تعالى نشر دينه وإخراجه خارج مكة ؛ هيأ له قلوباً من الأنصار ، والمدينة "يثرب " كانت تحوى ثقافات شتى ، ففيها العرب القحطانيون "الأوس والخزرج" الذين خرجوا من اليمن مع من خرج بعد خراب سد مأرب ، واستقروا في المدينة ذات الطبيعة الزراعية وهم أبناء زراعة ، وكان يسكنها بعض قبائل يهود ، جاءوا إليها قناعة منهم أنهم وجدوا في كتبهم أنها ستكون مهاجر نبي ، رأوا بعد النكبات المتلاحقة أن يأتوها لينصروا هذا النبي ويؤيدوه . واستقر منهم قوم في خيبر ، وفدك ، وتيماء ، وتبوك ، على هذا الأمل بعد ضربة قاسية تلقوها على يد الرومان . فقد قام الإمبراطور تيطس بقتلهم وتشريدهم ، وهدم معابدهم ومساكنهم ، فخرجوا يبتغون النجاة ، وتملكوا في المدينة الزراعة والأحكام ، وسكن القادمون من اليمن بالأرض القاحلة، وخضعوا لليهود إلى أن قام عبد الله بن العجلان بالاستنجاد بالغساسنة الذين تمكنوا منهم وأحلوا قومهم " الأوس والخزرج " في الأرض الخصبة ، فتحول اليهود للصناعة والتجارة والمراباة ، وعاش أولئك مع هؤلاء ، فترة حرب بين الأوس والخزرج دامت زهاء مائة عام – عرفت بأيام الأوس

والخزرج - كان اليهود يحالفون هؤلاء على أولئك ، ولا تنتهي الحرب حتى تعود ثانية . كان الأوس والخزرج ابنى أخوين أمهما قيلة فعرفا بابني قيلة .

وقادت الحروب بعضاً منهم إلى طلب الحلف مع قريش ، والتقى أولئك مع الرسول ﷺ في مكة ، فبعضهم اتجه نحو طلب الحلف ، وواحد منهم وجد الأمر أهم لو اتبع الرسول وأسلم وهو "إياس بن معاذ " فكان أول شعاع للإسلام يتوجه إلى يثرب ، يحمله هذا الشاب الذي مات (يوم بعاث) آخر أيامهم وهو يهلل ويكبر ، وما شك من حضره أنه مات مسلماً . كان إياس من الأوس من عبد الأشهل الذي سيكون لأخيه سعد وأخيه عمرو شأناً في الإسلام ، وكذلك أسيد ابن حضير بعد يوم بعاث الذي كان خيراً على العرب الذين كانوا على وثنيتهم - كجميع العرب - إلا من تنصر أو تهود من قبائل العرب [1] .

ولما أراد الله نشر دينه ، التقى النبي ﷺ مع ستة من الأوس والخزرج وهم : أسعد بن زرارة ، وعوف بن الحارث ، ورافع بن مالك العجلان ، وقطبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله . التقى بهم النبي ﷺ في العقبة ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . قال ابن إسحاق : وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام ، أن يهود كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكان قد عزوهم " غلبوهم " في بلادهم فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إن نبياً مبعوث الآن ، قد أظل زمانه ، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم . فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله . قال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله أنه النبي الذي يتوعدكم به يهود ، فلا تسبقكم إليه ، فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه في هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلٌ أعز منك .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا بينهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر رسول الله ﷺ [2] .

وفي العام الثاني وافى الموسم اثنا عشر رجلاً من يثرب ، لاقوا الرسول ﷺ العقبة ، وهي العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء [3] . وذلك قبل أن تفرض عليهم الحرب . قال ابن

---

(١) انظر كتابنا : مدينة يثرب قبل الإسلام - وهو الجزء الأول من تاريخ الأنصار السياسي نشر دار البشير - عمان ١٩٩٧م .

(٢) انظر : سيرة ابن هشام ، ٢ / ٣٩٢ .

(٣) ذكرت بيعة النساء في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ ﴾ وقيل: في قوله تعالى: ﴿ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ ﴾ أنه الولد ينسبه إلى بعلها،وليس منه وقيل : هو الاستمتاع بالمرأة فيما دون الوطء كالقبلة والجسة ونحوها (راجع الروض الأنف).

إسحاق : عن عبادة بن الصامت قال : كنت فيمن حضر العقبة الأولى . وكنا اثنى عشر رجلاً ، فبايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء ، وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب ، على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في معروف ، فإن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء عذب ، وإن شاء غفر [1] . وأرسل الرسول ﷺ معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى مصعب المقرئ في المدينة .

وأسلم على يد مصعب في هذا العام أعظم رجلين في يثرب زعماء بني عبد الأشهل من الأوس وهما : أسيد بن حضير ، وسعد بن معاذ ، وكان موقع سعد بن معاذ في الأنصار كموقع أبي بكر في المهاجرين ، من المكانة والحكمة والرفعة والتصديق والسمو حتى أنه لما أسلم – كما يقول ابن إسحاق : فلما رآه قومه مقبلاً – بعد مقابلة مصعب بن عمير والمسلمين معه عند بئر بني حارثة – قالوا : نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم ، فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم .. ؟ قالوا : سيدنا وأفضلنا رأياً وأعيننا نقية. قال : فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله .. ! قالوا : فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلاّ مسلماً أو مسلمة .

وجاء الاجتماع الحاسم الذي حول الدعوة الإسلامية إلى اتجاه آخر ، بعيداً عن التضاد والفتن والحروب التي شنتها على الأفراد المسلمين ، وتجنباً لكل ضغط وكل صد عن ذكر الله . تحولت الدعوة إلى يثرب بعد هذا الموقف العظيم الذي جرى في العقبة الثانية . حيث جاء في الموسم التالي للعقبة الأولى كثيرون ممن أسلم للقاء رسول الله ﷺ ، حيث كان معه العباس ، الذي أراد أن يستوثق لابن أخيه وأن يطمئن على المصير الذي سيؤول إليه ، فقد حمل العباس هم الدفاع عن رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب ، وقد حضر هذه البيعة و لم يكن قد أسلم بعد ، وحضر من الأنصار ثلاث وسبعون رجلاً وامرأتان ، واطمأن العباس من مقالته التي وجهها إلى الأنصار بتأكيد حماية الرسول والدفاع عنه .

قال العباس : يا معشر الخزرج – الأوس والخزرج ، فقد كانا يمثلين في هذه البيعة – إن محمداً منا حيث علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده . فقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد

---

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤ .

الخروج به إليكم ، فمن الآن فدعوه ، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده . قال : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . قال : فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغب في الإسلام ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم . قال : فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم والذي بعثك بالحق ، لنمنعنك مما نمنع أزرنا [1] ، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر . قال : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حبالاً ، وإنا قاطعوها ـ يعني اليهود ـ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ قال : فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم [2] أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم .

قال كعب بن مالك : وقد قال رسول الله ﷺ : أخرجوا منكم اثني عشر نقيباً ، ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهكذا فتحت أمام المسلمين مدينة يثرب بالأنصار ، وتحول المسلمون مهاجرين بدينهم إليها ليشيدوا دولتهم هناك .. والتي ستكون خير أمة أخرجت للناس . وبدأ المهاجرون يتركون مكة ميممين وجوههم شطر المدينة ، فهم البناة ـ مع الأنصار ـ الذين ستقوم عليهم دعائم أمة غير مسبوقة .. ولكنها بثباتها على الإسلام في أي بقعة من بقاع الأرض ، أو أي قوم من شعوب الأرض ـ هم خير أمة أخرجت للناس .

وانطوى بذلك العهد المكي الذي يعتبر بحق ، عهد بناء الفئة المؤمنة الصادقة التي تميزت عن فئات الدنيا ، وأمم الأرض ، وشعوب المعمورة بشهادة الله تعالى لها بالخيرية ، التي ما نالها قبلها أحد من المؤمنين أتباع الرسل عليهم السلام .. فهم لم يصلوا بحال إلى ما وصلت إليه أمة الإسلام من الصفات المؤهلة لذلك ، فقد أتبَعَ الله قوله لوصف الأمة الأمة الخيرة ، بل الأخيرة بين أمم الأرض على الإطلاق بقوله تعالى : ﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ** (١١٠) ﴾ [آل عمران] .

---

(١) العرب تكنى عن المرأة بالإزار ، وتكنى أيضاً بالإزار عن النفس ، وتجعل الثوب عبارة عن لابسه .

(٢) قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار : دمي دمك ، وهدمي هدمك أي ما هدمت من الدماء هدمته أنا .

الدور المدني " العهد المدني "

إن انتقال الدعوة الإسلامية إلى المدينة ، والخروج من الضغوط التي مورست حولها في مكة ، إنما هو تحول خطير في طريق بناء أمة الإسلام . الرجال الذين رباهم الرسول ﷺ وأحسن تربيتهم في مكة سيكون لهم امتداد عميق في قوم دخلوا الإسلام مجدداً فاستعذبوه ، وحملوه بكل أبعاده وأهدافه ومراميه .

والعهد المدني هو عهد السيادة الإسلامية ، أو على الأقل التميز عن مجتمع تعددت به الأخلاط والأجناس والأديان ، فاليهود وقبائلهم المتعددة قوم لهم جنسيتهم ودينهم ، ولم يكن بينهم من العرب إلا قليل . الذين تهودوا بفعل آبائهم أو عادات جرت في الجاهلية ـ إذ أن المرأة التي لا تلد تنذر إن حملت وولدت مولوداً تهوده ، ومن هنا جاء الحديث الشريف : " يولد الإنسان على الفطرة ، فأبواه إما يهودانه ، أو يمجسانه ، أو ينصرانه " .

ومع الرؤيا الموحدة لليهود في موضوع الديانة فقد كانوا قبائل متباعدة ، ومتحاربة في بعض الأحيان ، وذلك لاختلاف المصالح والتطلعات والأفكار ، ولكن جميعاً اتخذوا عداوة المسلمين ديدنهم وهدفهم ، حتى حصل ما حصل بينهم وبين المسلمين في هذا العهد . وغير اليهود ، العرب الذين لم يسلموا من الأوس والخزرج وبني سلمة وغيرهم ، والأعراب المتواجدون على تخوم المدينة يدخلونها لقضاء حوائجهم ، وأحياناً للغزو الذي كان ديدنهم وعقيدتهم ، وبروز عدو من أخطر هؤلاء وأشدهم نكاية بالمسلمين ، ألا وهم المنافقون الذين قرروا العمل من داخل الجماعة لتهديمها وإعاقة مسيرتها . لكن المسلمين الذين اندمجوا وانصهروا ببوتقة الإسلام ، قامت على وحدتهم وتحابهم تلك الأمة الخيرة ، في وقت يعتبر تعجيزياً بالنسبة للأحداث والمتغيرات في مسيرة البشرية . فعشر سنوات من المؤاخاة والرسول حي بينهم ، غير كافية لبناء أمة شهد الله تعالى لها بالخيرية ، وخافتها كل القبائل الأخرى ، في وحدة متجانسة قوية بنت وحدتها على الإيمان والإسلام ، وحب الرسول ﷺ وفدائه بالغالي والنفيس مهما غلا أو ارتفع ، أو سمى في عطائه : ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (٩) ﴾ [الحشر] .

وبذلك فقد تمكن الرسول بالمؤمنين أن يبني دولة الإسلام ، وأن يثبت وجودها في جزيرة العرب ، ويهيئ هذه الأمة لقيادة العالم ، فقد أرسل بشيراً ونذيراً للعالمين ولم تقتصر مهمته على هؤلاء القلة من العرب المهاجرين والأنصار ، أو ممن انضم إليهم من قبائل العرب الأخرى ، هذه

المجموعة التي كانت تسير في طريق غير ممهدة ، فاليهود والمنافقون، وامتدت يد الدول العظمى وقتها لتعيق هذه المسيرة ، علماً بأن الصدام الأول مع الفرس والعرب كان في العهد المكي ، و لم تكن شيبان وحلفاؤها من العرب مؤمنين ، ولكنهم اتخذوا الرسول ﷺ شعاراً ففازوا في ذي قار، وهزموا الفرس لأول مرة في تاريخ العلاقة بينهما (الفرس والعرب) . فقد قال الرسول ﷺ في هذه البداية : " اليوم أنصف العرب من العجم وبي نصروا " إذ أن العرب على كفرهم وعدم إيمانهم – والذي تأخر إلى عام الوفود تقريباً – اتخذوا يوم "ذي قار" شعاراً رددوه في المعركة "يا محمد يا منصور" . فلم يكن تدخل الدول العظمى مباشراً إلاّ في " مؤتة " ولكنه كان ذا أثر فعال بمدهم المعارضين والمناوئين دوماً لإضعاف بنيان هذه الأمة .

العهد المدني كان ــ رغم قصر مدته ــ البنيان الحقيقي لأمة الإسلام ؛ ففيه انتصر الرسول ﷺ بغزواته وسراياه على جميع المخالفين من العرب واليهود ، وعملاء الدول العظمى فقد كان البناء متميزاً مختلفاً عن كل ما عرف من أنظمة للحكم في ذاك العهد ، أو قبله بزمان طويل ، أو ما سيأتي لاحقاً .

مع امتداد الدعوة إلى المدينة ، وتميز المؤمنين فيها كتجمع مستقل واضح ، ودخول علية القوم فيه ، وتعهدهم بالدفاع عنه والذود عن الرسول ، اقتضى هذا الأمر تجمع المسلمين في موطن آمن ، وهذا التجمع الذي وصفه الله تعالى بأبلغ الأوصاف وأقواها ، موضحاً الضرورة الملحة لمثل هذا التجمع ، حتى يمكن بهذه الفئة – ولو كانت قليلة ــ بناء الأمة المطلوبة لتكون مع الصفات المعتبرة خير أمة أخرجت للناس ؛ في الماضي والحاضر والمستقبل قال تعالى : ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمْ الصَّادِقُونَ(٨)وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ(٩)وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٠)**﴾[الحشر] .

وصف لفئتين من المؤمنين التقتا في مشروع المؤاخاة ؛ فأحدثت نقلة كبيرة جداً في حياة المسلمين ، نقلة أعطت الذين جاءوا من بعدهم الوصف الأمثل الموحد ، حيث جعل الذين جاءوا من بعدهم يقرون : بأن ما تم بين الفئتين تلكم قد أذاب الحقد والضغينة والبغضاء وحب الدنيا من نفوس هذه القوة المؤثرة الجديدة ، والتي سيكون لها الشأن الخطير في البناء وتثبيت البناء ، وأن

تستمر هذه الأمة التي نتجت عن هذا الإخاء ، بفضل الله ورعايته دائمة باقية . كان أولها وصف هاتين الفئتين المهاجرين والأنصار وكانت المؤاخاة .

ـ الواقع أن المؤاخاة لم تكن تحمل تلك الضجة الهائلة بالعدد والقوة ، واتحاد القبائل واتحاد الدول ، ولكنها كانت على قلة عدد الداخلين بها أخطر ما عملته أمة الإسلام ؛ حيث بقي وسيبقى هذا الإخاء بمفهوم قيامه مستمراً دائماً ، ولتبقى أمة الإسلام ذات الخير الدائم ، ولم يكن العدد بالقدر الذي يغير فجأة أحوال الدنيا . وزوال الحضارات المادية وبناء حضارة الإسلام ، إنهم لم يصلوا إلى مائة من الرجال . كانوا تسعين رجلاً نصفهم من الأنصار ونصفهم من المهاجرين ، حفظت كتب السيرة أسماءهم ، نفذوا أمر الرسول ﷺ تآخوا في الله اثنين اثنين ، وأخذ بيد ابن عمه علي بن أبي طالب وقال : هذا أخي . فكانت المؤاخاة التي جمعت بين فئتين آمنتا بالله ووضعت على الأرض جماعة واحدة ، أمة واحدة ، خير أمة أخرجت للناس .

آخى الرسول ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك وكانوا تسعين رجلاً نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، آخى بينهم على المواساة ويتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام إلى حين وقعة بدر ، فلما أنزل الله عز وجل : ﴿ **وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ** ﴾ [الأنفال: ٧٥] رد التوارث دون عقد الأخوة ومعنى هذا الإخاء - كما قال محمد الغزالي - أن تذوب عصبيات الجاهلية فلا حمية إلاّ للإسلام ، وأن تسقط فوارق اللون والنسب والوطن . فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلاّ بمروءته وتقواه ، وقد جعل الرسول ﷺ هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً ، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال ، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر .

وكانت عواطف الإيثار والمساواة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة،وتملأ المجتمع الجديد بأروع المثال [١] .

وروي عن أبي هريرة قال : قالت الأنصار للنبي ﷺ : اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل . قال : لا .. ! فقالوا : تكفونا المؤونة ، ونشرككم في الثمر .. قالوا : سمعنا وأطعنا [٢] .

وهذا يدلنا على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة البالغة بإخوانهم المهاجرين ، ومن التضحية والإيثار والود والصفاء ، وما كان عليه المهاجرون من تقدير هذا الكرم حق قدره ، فلم يستغلوه، ولم ينالوا منه إلاّ بقدر ما يقيم أودهم .

وحقاً فقد كانت هذه المؤاخاة فذة ، وسياسة صائبة حكيمة ، وحلاً رائعاً لكثير من المشاكل التي كان يواجهها المسلمون والتي أشرنا إليها [٣] .

---

(١) انظر : فقه السيرة النبوية - محمد الغزالي ١٤٠ - ١٤١ .

(٢) صحيح البخاري (١٢٣٢) .

(٣) انظر : الرحيق المختوم - صفي الدين المبارك فوري - دار السلام ، الرياض ١٩٩٤م صفحة ١٨٥ - ١٨٦ .

سبق عملية المؤاخاة ، وتجميع الفئة المؤمنة وتلاها الكثير من الأحداث الهامة والصائبة ، سبقها بناء المسجد النبوي ؛ والذي كان المكان الذي تتم به جميع قضايا الدولة والأمة . العبادة أولاً ومن ثم التعليم ، والتدريب والتوجيه ، والمؤتمرات ولقاء الضيوف وأماكن الحل والعقد للأمور الهامة ، الحروب والسلام والمعاهدات ؛ ومن يأتي إلى المدينة يأتي للمسجد فالباني لأمة الإسلام والمشيد لحضارة الإسلام ، والباعث لأمة التوحيد مقيم فيه .. أهله بجواره ، وأصحابه معه فيه فأي أمر يلزم جماعة المسلمين يعقد فيه ، ويتم التوجيه النبوي للمسلمين فيه بالحياة السياسية والعسكرية والتربوية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والعلمية ، كلها تتم في هذا المسجد بأمر الله تعالى المنزل في قرآنه وبتوجيهات النبي ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى .

وأول خطوة خطاها رسول الله ﷺ بعد ذلك هو إقامة المسجد النبوي ، ففي المكان الذي بركت فيه ناقته أمر ببناء هذا المسجد ، واشتراه من غلامين يتيمين كانا يملكانه وساهم ببنائه بنفسه ، فكان ينقل اللبن والحجارة ويقول :

اللهم لا عيش إلا عيش الآخره فاغفر للأنصار والمهاجره

ويقول ﷺ :

هذا الحمال لا حمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وكان ذلك مما يزيد نشاط الصحابة في البناء حتى أن أحدهم ليقول :

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منا العمل المضلل

وكانت في ذلك المكان قبور المشركين فنبشت ، وبالخرب فسويت ، وبالنخيل والشجر فقطعت ووضعت في قبلة المسجد ، وكانت القبلة إلى بيت المقدس ، وجعلت عضادتاه من حجارة، وأقيمت حيطانه من اللبن والطين ، وجعل سقفه من جريد النخل ، وعمده الجذوع ، وفرشت أرضه من الرمل والحصباء ، وجعلت له ثلاثة أبواب ، وطوله مما يلي القبلة إلى مؤخره مائة ذراع ، والجانبان مثل ذلك أو دونه وكان أساسه قريباً من ثلاثة أذرع .

وبنى بيوتاً إلى جانبه ، بيوت بالحجر واللبن ، وسقفها بالجريد والجذوع ، وهي حجرات أزواجه ﷺ . وبعد تكامل الحجرات انتقل إليها من بيت أبي أيوب [1] ولم يكن المسجد موضعاً لأداء الصلوات فحسب ، بل كان جامعة يتلقى فيها المسلمون تعاليم الإسلام وتوجيهاته ، ومنتدى تلتقي وتتآلف فيه العناصر القبلية المختلفة التي طالما نافرت بينها النزاعات الجاهلية وحروبها ، وقاعدة لإدارة جميع الشؤون وبث الانطلاقات ، وبرلماناً لعقد المجالس الاستشارية والتنفيذية .

---

(١) صحيح البخاري ١/٧١ ، ٥٥٥ ، ٥٦٠ – زاد المعاد ٢ / ٥٦ .

وكان مع هذا كله داراً يسكن فيها عدد كبير من فقراء المهاجرين اللاجئين ؛ الذين لم يكن لهم هناك دار ولامال ولا أهل ولا بنون .

وشرع الأذان في أوائل الهجرة ، النغمة العلوية التي تدوي في الآفاق ، كل يوم خمس مرات والتي ترتج لها أنحاء عالم الوجود . وقصة رؤيا عبد الله بن زيد بهذا الصدد معروفة رواها أئمة الحديث [1] .

لحقت المؤاخاة عملية التّميُّز ، تميز الفئة المؤمنة القليلة العدد (٩٠) تسعون رجلاً من المهاجرين والأنصار ، أعد الله لهم تبعات في الدنيا وأعدهم ليكونوا أهلاً لهذه التبعات . سهل لهم الدنيا وشد عزيمتهم ليسودوا على قلتهم في قومهم وفي العالم . أعدهم وميزهم ليدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وليخلدوا أبد الدهر ، قام الرسول ﷺ بتميزهم عمن سواهم من الناس ، ولو كانوا في مجتمع متضارب الآراء والأفكار ، مختلف المشارب والتوجهات . ميزهم الله عن هذا المجتمع الذي يعيشون فيه ، فيهم إخوانهم وآباؤهم وعشيرتهم والأقربين ، ولكن الله ميزهم بقوله الذي يعتبر الحد الفاصل في العلاقات البشرية قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)** ﴾ [التوبة] .

هذا التميز لا يستطيعه إلا أولو العزم من المؤمنين الصادقين ، فكانت هذه الفئة المؤمنة التي ستغير أحوال الدنيا على فترة من الزمن لا يكاد ينجز غيرهم بناء لبنة واحدة فيها ، إن كانوا قادرين على ذلك . حول هؤلاء الدنيا وطوعوها بغير اتجاهها الذي كانت تقودها بها الجهالة .

هذا الأمر الذي لحق المؤاخاة كان البناء الحقيقي لأمة الإسلام ، ومن هذا الميثاق الذي كتبه الرسول ﷺ مع الآخرين من غير المؤمنين هو الإشارة الواضحة لأمة الخير التي أرادها الله تعالى في هذه الدنيا ، تحمل صفات غير ما عرف من الأمم قبلها وغير ما سيعرف بعدها من الأمم أيضاً . تلك هي الأمة المتميزة عن سائر الشعوب ومختلف الأمم .

ـ هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم .

١ - أنهم أمة واحدة من دون الناس .

---

(١) انظر : الرحيق المختوم ص ١٨٤ .

٢- المهاجرون من قريش على ربعتهم [١] . يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين .. وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

٣- وأن المؤمنين لا يتركون مغرماً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل .

٤- وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم ، أو ابتغى دسيعة [٢] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين .

٥- وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم .

٦- ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر .

٧- ولا ينصر كافرا على مؤمن .

٨- وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

٩- وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة ، غير مظلومين ولا منتصرين عليهم .

١٠- وإن سلم المؤمنين واحد ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلاّ على سواء وعدل بينهم .

١١- وأن المؤمنين يفيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله .

١٢- وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه مؤمن .

١٣- وأنه من اعتبط مؤمناً [٣] قتلاً على بينة فإنه قود به ، إلاّ أن يرضى ولى المقتول .

١٤- وأن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلاّ قيام عليه .

١٥- وأنه لا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً أو يؤويه . وأنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ، ولا يؤخذ منه عدل ولا صرف .

١٦- وأنكم مهما اختلفتم في شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ [٤] .

بعض صفات مجتمع الإسلام :

بهذه الحكم وبهذه الحذاقة أرسى رسول الله ﷺ قواعد مجتمع جديد ، ولكن كانت هذه الظاهرة أثراً للمعاني التي كان يتمتع بها أولئك الأمجاد بفضل صحبة النبي ﷺ . وكان النبي ﷺ

---

(١) ورد الكتاب مختصراً في تعريف الأمة من هذا الكتاب .

(٢) الدسع : الدفع كالدسر : والمعنى أي طلب دفع ظلم .. لسان العرب بتصرف .

(٣) اعتبط مؤمناً قتلاً : قتله بلا جناية كانت منه ولا جريرة توجب قتله (لسان العرب) .

(٤) ابن هشام ١/ ٥٠٢ ، ٥٠٣ .

يتعهدهم بالتعليم والتربية وتزكية النفس والحث على مكارم الأخلاق . ويؤدبهم بآداب الود والإخاء والمجد والشرف والعبادة والطاعة .

ـ سأل رجل النبي ﷺ : أي الإسلام خير ؟ قال :" تطعم الطعام ، وتقرئ السلام على من عرفت وما لم تعرف " (١) .

ـ قال عبد الله بن سلام : لما قدم النبي ﷺ المدينة جئته ، فلما تبينت وجهه ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب . فكا أول ما قال : " يا أيها الناس .. افشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام " (٢) .

وقال : " لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه " (٣) .

وكان يقول : " المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده " (٤).

ويقول : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه كما يحب لنفسه "(٥) . وقال : " المؤمنون كرجل واحد ، إذا اشتكى عينه اشتكى كله ، وإن اشتكى رأسه اشتكى كله" (٦)

ومن أقواله ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً " (٧) .

ـ " لا تباغضوا ولا تحاسدوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخواناً ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام " (٨) .

ـ " المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة " (٩) .

وقال ﷺ : " ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء " (١٠) .

ـ " ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جانبه " (١١) .

---

(١) رواه البخاري (١٢ ، ٢٨ ، ٣٦ ، ٦٢) .

(٢) رواه الترمذي (٢٤٨٥) .

(٣) رواه مسلم (٧٣/٤٦) .

(٤) رواه البخاري (١٠ ، ٦٤٨) .

(٥) رواه البخاري (١٣) .

(٦) رواه مسلم (٦٧/٢٥٨٦) .

(٧) مشكاة المصابيح ٢ / ٤٢٢ .

(٨) رواه البخاري ٢ / ٨٩٦ .

(٩) البخارى (٦٩٥١) ، ومسلم (٥٨/٢٥٨٠) .

(١٠) سنن أبي داود ٢ / ٢٣٥ . الترمذي ٢ / ١٤ .

(١١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩٥٣٦) .

ـ " سباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر " [1] .

وكان ﷺ قد جعل إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، ويعدها شعبة من شعب الإيمان [2] .

وحث النبي ﷺ المؤمنين على الإنفاق ، ويذكر من فضائله ما تتقاذف إليه القلوب . فقال : " الصدقة تطفئ الخطايا كما يطفئ الماء النار " [3] .

ويقول : " أيما مؤمن كسا مسلماً ثوباً على عرى ، كساه الله خضر الجنة ، وأيما مسلم أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، وأيما مسلم سقا مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم " [4] .

ويقول : " اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فإن لم تجد فبكلمة طيبة" [5] وبجانب هذا كان يحث حثاً شديداً على الاستعفاف عن المسألة ، ويذكر فضائل الصبر والقناعة . وكان يعد المسألة كدوحاً أو خدوشاً أو خموشاً في وجه السائل . اللهم إلاّ إذا كان مضطراً . كما كان يحدثهم بما للعبادات من الفضائل والأجر والثواب عند الله ، وكان يربطهم بالوحي النازل عليه من السماء ربطاً موثقاً يقرؤه عليهم ويقرؤونه ، لتكون هذه الدراسة إشعاراً بما عليهم من حقوق الدعوة ، وتبعات الرسالة ، فضلاً عن ضرورة الفهم والتدبر .

ـ وهكذا رفع معنوياتهم ، وفجر مواهبهم ، وزودهم بأعلى القيم والأقدار والمثل حتى صاروا صورة لأعلى قمة من الكمال عرفت في تاريخ البشر بعد الأنبياء .

يقول عبد الله بن مسعود ﷺ: من كان مستناً فليستن بمن قد مات ، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة . أولئك أصحاب محمد ﷺ . كانوا أفضل الأمم ، أبرها قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفاً ، اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على أثرهم وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم ، ثم إن النبي ﷺ القائد العظيم كان يتمتع من الصفات المعنوية والظاهرة ، ومن الكمالات والمواهب والأمجاد والفضائل ، ومكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ، بما جعلته تهوي إليه الأفئدة ، وتتفانى عليه النفوس، فما يتكلم بكلمة إلاّ ويبادر صحابته – رضي الله عنهم – إلى امتثالها ، وما يأتي برشد أو توجيه إلاّ ويتسابقون إلى التحلي به .

---

(١) رواه البخاري ٢ / ٨٩٣ .

(٢) نص الحديث في الصحيحين : " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها الإيمان بالله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " .

(٣) رواه الترمذى (٦١٤، ٢٦١٦) .

(٤) الترمذي (٢٤٤٩) .

(٥) أخرجه البخاري ١ / ١٩٠ ، ٢ / ٨٩٠

بمثل هذا استطاع النبي ﷺ أن يبني في المدينة مجتمعاً جديداً أروع وأشرف مجتمع عرفه التاريخ ، وأن يضع لمشاكل هذا المجتمع حلاً تتنفس له الإنسانية الصعداء ، بعد أن كانت تعبث في غياهب الزمان ودياجير الظلمات .

وبمثل هذه المعنويات الشامخة تكاملت عناصر المجتمع الجديد ، الذي واجه كل تيارات الزمان حتى صرف وجهتها . وحول مجرى التاريخ والأيام [٢] .

ـ وفي مجال آخر .. لقد ساكن المسلمين في يثرب من غير المشركين اليهود ، وهم أهل الكتاب الأول . ومن الأسباب الكثيرة التي تحدثت عن وجودهم في يثرب استبشارهم بنبي أطل زمانه ، سبقوا غيرهم إلى المدينة ، حتى إذا ظهر هذا النبي كانوا الأسبق إلى اتباعه والاستجابة له ، فهم أهل النبوات ، وما كثر الأنبياء بأقوام أكثر منهم ، فهم الأعلم ، سواء مما توارثوه شفاهاً أو كتابة ، فإنه هو المقصود بأوصافه عندهم . ومع كثرة الأسباب الأخرى لوجودهم ، إلاّ أن هذا السبب الذي قابلوا بهم مساكينهم ، أو معاديهم ، أو مناصريهم من العرب .

ولما ظهر الرسول ﷺ أسلم القليل منهم ، وأعرض أكثرهم . وتحكي كتب السيرة عن هذا الحال قصصاً كثيرة ، حتى عندما جادلهم الرسول ﷺ وجادلهم بعض أصحابه ، وعلى رأسهم الصديق أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه في مدارسهم ، وكان أن بادر النبي ﷺ لدعوتهم ، وتذكيرهم بوجوب اتباعه ، لكن صدوا عن ذلك ، ومعرفة الرسول ﷺ بما عندهم فقد لجأ إلى معاهدتهم والصلح معهم ، فهم من نزل عليهم الكتاب ، وعرفوا الإيمان وضلوا من بعده . واتبعوا أنبياء ورسلا ، وقتلوا أنبياء آخرين ، وكانت قصتهم مع الرسالة والنبوة من أكثر القصص التي ذكرت في التاريخ ، وفي أسفارهم فاستحقوا ما وصفهم الله تعالى وما تعامل معهم رسوله بعد ذلك عليه الصلاة والسلام ، وطبعاً فإن اليهود لم يكن يرجى منهم أن ينظروا إلى الإسلام إلاّ بعين البغض والحقد ، فالرسول لم يكن من جنسهم حتى ليسكن جأش عصبيتهم الجنسية التي كانت متقلبة على نفسياتهم وعقليتهم .

ثم دعوة الإسلام لم تكن إلاّ دعوة صالحة تؤلف بين أشتات القلوب ، وتطفئ نار العداوة والبغضاء ، وتدعو إلى التزام الأمانة في شؤونهم العامة ، وإلى التقيد بأكل الحلال من طيب الأموال، ومعنى كل ذلك أن قبائل يثرب العربية ستتألف فيما بينها ، وحينئذٍ لا بد من أن تفلت من براثن اليهود ، فيفشل نشاطهم التجاري ، ويحرموا أموال الربا التي كانت تدور عليه رحى ثروتهم ، بل ربما يحتمل أن تتيقظ تلك القبائل ، فتدخل في حسابها الأموال الربوية التي أخذها اليهود ، فتقوم

---

(١) انظر : الرحيق المختوم ١٨٦ فما بعد بعض التصرف .

بإرجاع أرضها وحوائطها التي أضاعتها إلى اليهود في تأدية الربا . كان اليهود يدخلون كل ذلك في حسابهم منذ عرفوا أن دعوة الإسلام تحاول الاستقرار في يثرب . ولذلك كانوا يبطنون أشد العداوة ضد الإسلام وضد رسول الله ﷺ منذ أن دخل يثرب ، وإن كانوا لم يتجاسروا على إظهارها إلاّ بعد حين [1] .

قال ابن إسحاق : عن أم المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب رضي الله عنها ، قال : حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت : كنت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمي أبي ياسر. لم ألقهما قط مع ولد لهما إلاّ أخذاني دونه . قالت : فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، ونزل في قباء في بني عمر بن عوف . غدا عليه أبي حيي بن أخطب ، وعمي أبو ياسر بن أخطب ، مغلسين [2] . قالت : فلم يرجعا حتى كان مع غروب الشمس . قالت : فأتيا كالين كسلانين ، ساقطين يمشيان الهوينا . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ما التفت إليّ واحدٌ منهما ، مع ما بهما من الغم . قالت : وسمعت عمي أبي ياسر وهو يقول لأبي حيي بن أخطب : أهو هو ؟ قال : نعم والله ، قال : أتعرفه وتأتيه ؟ قال : نعم ، قال : فما من نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت .. ! [3] .

وفي قصة إسلام عبد الله بن سلام :

روى البخاري : أن عبد الله بن سلام كان حبراً من فطاحل علماء اليهود ، ولما سمع بمقدم رسول الله ﷺ المدينة في بني النجار جاءه مستعجلاً ، وألقى إليه أسئلة لا يعلمها إلا نبي ، ولما سمع ردوده ﷺ عليها آمن به من ساعته ومكانه . ثم قال له : إن اليهود قوم بهت ، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك . فأرسل رسول الله ﷺ فجاءت اليهود . ودخل عبد الله بن سلام البيت . فقال رسول الله ﷺ : " أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ " . قالوا : أعلمنا وابن اعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا (وفي لفظ) : سيدنا وابن سيدنا وفي لفظ آخر : خيرنا وابن خيرنا وأفضلنا وابن أفضلنا . فقال رسول الله ﷺ : " أفرأيتم إن أسلم عبد الله . ؟ " فقالوا : أعاذه الله من ذلك (مرتين أو ثلاثاً) فخرج إليهم عبد الله فقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا : شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه . (وفي لفظ) :

---

(١) انظر : الرحيق المختوم ، ص ١٨١ .

(٢) مغلسين : مبكرين قبل الشمس .

(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٥١٨ - ٥١٩ .

قال : يا معشر اليهود اتقوا الله ، فوا الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق . فقالوا : كذبت [1] .

ومن أجل أن يأمن الرسول ﷺ بادر لكتابة عهد معهم ، حتى لا يغدروا بالرسول وبالمسلمين. ومع هذا فقد انقلب اليهود على رسول الله وخانوا عهدهم كما تحدثت كتب السيرة ، ووضعوا أنفسهم خصوم المسلمين مع المشركين وقريش ، وكانوا سبباً للعداوة والحروب مع الرسول ﷺ . وجاءت هذه المعاهدة ضمن الصحيفة التي سبقت الإشارة إليها . خص الرسول ﷺ اليهود بها ، لموقعهم ومكانتهم ، ولسوء طوية نفوسهم . ومن أهم البنود التي شملت اليهود :

١ - إن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم .

٢ - إن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

٣ - وأن عليهم النصر مع من حارب أهل هذه الصحيفة .

٤ - وأن بينهم النصح والنصيحة ، والبر دون الإثم .

٥ - وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه .

٦ - وإن النصر للمظلوم .

٧ - وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

٨ - وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

٩ - وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل ، وإلى محمد رسول الله ﷺ .

١٠- وإنه لا تجار قريش ولا من نصرها .

١١- وإن بينهم النصر على من دهم يثرب، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

١٢- وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم [2].

وبإبرام هذه الصحيفة (المعاهدة) صارت المدينة وضواحيها دولة وقائية عاصمتها المدينة ورئيسها ــ إن صح هذا التعبير ــ رسول الله ﷺ ، والكلمة النافذة والسلطان الغالب فيها للمسلمين ، وبذلك أصبحت المدينة عاصمة حقيقية للإسلام .

ولتوسيع منطقة الأمن والسلام عاهد النبي ﷺ قبائل أخرى مستقبلاً بمثل هذه المعاهدة حسب الظروف التي اقتضت إبرامها [3] .

---

(١) صحيح البخاري ١ / ٤٥٩ ، ٥٥٦ ، ٥٦١ . وانظر : الرحيق المختوم ص ١٨٢ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٥٠٣ - ٥٠٤ .

(٣) الرحيق المختوم ص ١٩٣ .

تنبئ هذه المعاهدة – سواء مع يهود أو مع القبائل الأخرى – أن الرسول ﷺ أراد لبنائه الذي كلف بتشيده – دولة الإسلام – أن لا تؤتى من داخلها ، وهذه المعاهدة أو الموادعة إنما هي الخطوة الأهم في تأمين مسار هذه الدولة، لم تكن تلك الأفعال والأعمال الموحى بها للرسول ﷺ بحثاً عن هدنة أو رضاً بواقع ،ولكنها وفي عمومها كانت الأساس المتين الذي أشاده المصطفى ﷺ وأصحابه،وليست هذه الأفعال من حيث فعلها تشابه أو توازي ما كان يجري في العالم وقتها ، من تطاحن القوى العظمى على السيطرة والتفوق وتحقيق الانتصارات . كان أولئك يحركون كل ما عرف من العالم القديم وقتها ، ومحمد يبني أمته بأناة وصبر وزيادة عدد المؤمنين ممن عرفوا أن العالم وقتها هو الحياة المطلوبة لكنه عالم يقتتل فيه الناس لأي سبب من الأسباب ؛ فقط لأن لكل دولة من الدول العظمى ذلك الجيش الضخم ، الذي إن لم يقاتل في الخارج يقاتل في الداخل . ويصبح أداة تغيير السياسة أو أداة الهيمنة المطلقة ، سواء على شعوبهم أو من جاورهم أو أراد أن يتحرج بهم ، المهم أن ما تبع الأعمال الأولى في المدينة كان الفيصل في تحول تفكير المسلمين من كونهم جماعة مؤمنة فقط ، إلى أمة واضحة المعالم والأشكال ، قادرة على النمو والاستمرار ، وقادرة على الدفاع عن نفسها أمام جميع العاديات ، سواء تلك القوى التي بدأت تتمرد على هذا الواقع ، وتريد أن تقضي عليه أو تحد من نموه ، أو على الأقل تجعل وجوده تحت السيطرة .

إن فقدان تلك الأسس التي بنى عليها المصطفى أمة الإسلام في عصرنا الحاضر ؛ إنما هو تكوين هياكل من ورق تسمى دولاً ، لا تملك من مقومات الدول والحياة والاستمرار شيئاً . فهي ــ أي هذه الدول ــ تعيش على تخطيط الآخرين لها ، ومن ثم حمايتها بالقدر التي تحقق المصلحة للآخرين بلقمة تدفع في أفواه أبنائها ، أو ستر لعوراتهم ، وحتى هذه لا ينالها أفراد الدول الكثيرة الآن إلا بطريق الحرام ، الذي يعتمد على الاختلاس والسرقة والتزوير وأكل مال الضعفاء .

جاءت الأحداث اللاحقة في العهد المدني كله تنبئ بأن هذا البنيان الخير سيبقى ويدوم ويستمر، وبالأسلوب الأمثل الذي أراده الله تعالى لهذه الأمة ، ولو أن فترة البناء لم تدم طويلاً على يد الرسول ﷺ ، لكن ما أعطاه لصحبه كان كافياً لأن يكون الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين، قادرين وبالشكل الأمثل المحافظة على هذا البناء ، قادرين على تقوية الروابط والأواصر بين أفراد المجتمع ، لبقاء الخيرية في هذه الأمة دائماً وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وتحقيق قوله تعالى في أن تبقى تلك الأمة أبداً تتمتع بالصفات التي عليها بنيانها الأول .

صحيح أن انحرافات كثيرة تقع ووقعت ، وغيرت وبدلت ، لكن البنيان الأساسي من الإيمان ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باقٍ خالد ما خلد الإنسان في هذه الأرض .

العهد المدني تميز بوضوح عن العهد المكي الذي كان كل ما جرى فيه هو العمل بالأساس ، أما العهد المدني فهو البنيان المرئي والمنظور والقدوة الذي يجب أن يتبع .

لقد بنى الرسول ﷺ الرجال في العهد المكي ، الذين تمكنوا أن يشيدوا بنيان الأمة في العهد المدني والذي تلاه بعد ذلك .

١ – العبادات :

استكملت فرائض الإسلام في العهد المدني ففرضت الزكاة والصيام والحج ، أما الشهادتان والصلاة فقد فرضتا بالعهد المكي ، وهذه فرائض الله تعالى الذي بنى الإسلام عليها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت مرة واحدة لمن استطاع إليه سبيلاً ، وصوم رمضان ، وجاءت فرائض أخرى مثل الجهاد وبر الوالدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتعلم وصلة القربى ، وتحريم كثير من المحرمات كالخمر والميسر والسرقة وأكل الميتة وأكل مال اليتيم والزنا .

وفرضت العقوبات الرادعة للإتيان بهذه المنهيات ، أو ترك فريضة من الفرائض ، وسنت الديات والمحاكم والقضاء ، والمرجع القضائي في القرآن والسنة وأولي الأمر من المسلمين ، ومعاملة المعاهدين والمشركين والذميين ، وفقه الجهاد والدعوة إلى الله ، وجعل القيام بكل هذه الفرائض عبادة لله تعالى ، وتركها خروجاً عن الشرع ، وترك واحدة وإنكارها بالضرورة تعتبر خروجاً من الملة ، كما حددت شروط الإيمان والأولويات المطلوب الحد الأدنى منها ؛ وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وتبعها الكثير من القضايا الضرورية لتثبيت الإيمان ، قال ﷺ : " الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها الإيمان بالله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق " .. وبذلك فقد تحددت تماماً المفاهيم والعقائد الأساسية للمسلمين ، وفهم حدود الإيمان والإسلام والإحسان وغيرهم من الموجبات الضرورية لاعتناق المسلم . كما فهم المسلمون تلك الأبعاد ؛ خاصة حدود الطاعة والقيام بما هو مطلوب في كل واحدة من هذه العقائد ، وحددت الفرائض والسنن والنوافل .

ونرى أنها كلها تدور في حدود المفروض ، وفتح الباب على مصراعيه للعباد أو أولي العزم من الناس أن يقوموا بهذه العبادات ، ولم يدع الإسلام واحدة تطغى على الأخرى قيمتها ، أو تجعل الإنسان يعجز عن القيام بالأمور الأخرى ، وهذا التوازن العجيب الذي حدده الرسول ﷺ يتلخص بقصة أولئك الصحابة الذين قرروا أن يصلي أحدهم الليل والنهار ، ويصوم الثاني الدهر كله ، ويعتزل الثالث النساء .

عن أنس ﷺ قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أخبروا كأنهم تقالوها وقالوا : أين نحن من النبي ﷺ ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فأصلي الليل أبداً ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال الآخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال : " أأنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني " (١) .

فهذا التوازن في العبادة جعل المسلمين جميعاً متساوين في التكاليف وفي الأداء ، وفي الثواب إلاّ من تطوع خيراً فهو خير له .. ورد هذا في رخصة الصيام و لم يرد في التكليف ، كما ورد في الحج ﴿ **فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه** ﴾ [البقرة :٢٠٣] كما أن العبادات كلها ارتبطت بالطاقة والمقدرة ، فكلما وضعت لها التكاليف ، وضعت لها الرخص ، وبذلك فإن الإسلام خلا من الرهبانية ، وخلا من رجال الدين ، وخلا من هيمنة الزهاد أو العباد ، أو أصحاب العزائم لتكون الأمور بأيديهم ، بل الجميع مكلفون على السواء الرجال والنساء والمكلفون من الشباب والشابات ، كل حسب مقدرته وطاقته وكان الحد الفصل بقوله تعالى : ﴿ **لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** (٢٨٦) ﴾ [البقرة] .

إن العبادة في الإسلام أبعدت عن المسلمين كل الأخطاء التي ارتكبها أتباع الديانات الأخرى وأهمها الاستئثار بالعلم بالدين لفئة خاصة من الناس استغلت الدين لمصالحها الخاصة والشخصية ، ولقد كان تأثير النصرانية بهذا المفهوم هو الذي قادها إلى الرهبانية التي لم يكتبها الله عليهم ، و لم يعطوها حقها المطلوب . أما في الإسلام فالكل مكلف ، والكل محاسب ، والكل يثاب على ما قدم ، ويعاقب على ما قصر ، ولا يحمل واحد إصر آخر ، وجعل ذلك مرتبطاً بالنفس الإنسانية التي دخلت في هذا الدين ، فأدت ما أدت ولكن لا يمنع ذلك من وجود العلماء الذين يختصون بالمعرفة والعلم ، ويتوسعون بما وهبهم الله من مدارك في مجال الفهم والتأويل والتفسير ، وحفظ السنن وتصحيحها والبحث عن الأدلة في كتاب الله وسنة رسوله ، بالقدر الذي يمكن لهم أن يقفوا على هذه المفاهيم . لكن ليس لهم من الامتياز إلا الاحترام والتقدير لأن ما قدموه مسجل في صحائفهم ، مجازون به عند ربهم العزيز الغفار ، والمطلوب من المسلمين معرفة الحد الأدنى المرتبط

---

(١) حديث صحيح متفق عليه ـ رياض الصالحين ، باب الاقتصاد في العبادة - ١٤ .

بالعبادة خاصة ؛ وهذا هو الأمر المفروض على كل مسلم ، أما بالنسبة للتوسع في العلوم الإسلامية فهو زيادة في كسب الثواب للذين يرغبون بذلك ، لكن المعرفة ضرورية بكل الأركان الأساسية للعبادات للقيام بها مع الجماعة أو فرادى وخاصة الفرائض المحددة .

العبادة في الإسلام قربى إلى الله تعالى فمن أداها بحدها الأدنى فقد أعتق رقبته من النار ، والله تعالى يقبله في عباده الصالحين ، ومن زاد فيها فلكل عمل أجره ، ولكل مجتهد نصيب من اجتهاده، والإخلاص في أداء هذه العبادات أو السنن أو الواجبات أو النوافل ، ولكن لا يغيب عن ذهن المسلم أبداً التوازن المطلوب حتى لا يتم أمر على حساب أمر ؛ فلا يمنع إطلاقاً الجهد المضني في الصيام ، عن الصلاة ولا عن الزكاة ولا عن غير ذلك من الفرائض .

٢- فقه المعاملات :

في الفقه الإسلامي تنوع . وهذا التنوع يقع تحت عنوانين رئيسيين هما : فقه العبادات .. وهو الذي مر الحديث عنه ، ومن ثم فقه المعاملات وهو المتعلق بالعلاقة بين الناس بعضهم ببعض ، وبين الناس والدولة ، وعلاقة الدولة بالدول الأخرى " العلاقات الخارجية " واعتبرت العلاقات عموماً وخاصةً ما يتعلق بحقوق الناس عبادة مثلها مثل العبادات التي مر ذكرها ، إقامتها بالحلال ثواب ، وإتيانها بالحرام عقاب ، ولقد نهى الإسلام في بناء دولته على أساس عبادي مرتبط بالعبادات ، وهي طريق للثواب وطريق للعقاب ، وليس هذا إلاّ في شرع الله تعالى ، لقد وردت النصوص تؤكد هذا المعنى في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ولقد فتح الله تعالى الطريق للتوبة لعباده المؤمنين، والحديث الشريف : " عن أبي ذر ومعاذ بن جبل قال : كنت خلف الرسولﷺ فقال : "يا غلام اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن " [1] ، إلاّ حقوق الناس ، فإن الله تعالى إن لم يوفها في الدنيا تنقص من الحسنات في الآخرة ، وفقه المعاملات في الإسلام باب متسع متشعب طويل يربط الإنسان المسلم بالكثير من الأوامر والنواهي ، ولا تجد شرعاً حوى كما حوى الشرع الإسلامي أحكاماً بالمعاملات حتى أدناها ، شارحاً كل الأبعاد التي توجب التعامل بين الناس وربط هذه القضايا بالعبادة إنما هو تأكيد على فعل الحسنات منها ، وتجنب السيئات مهما كانت أبعادها وأن الله تعالى خاطب المؤمنين مباشرة بالكثير من هذا الفقه وفقه العبادات أيضاً . ويتميز الشرع الإسلامي في عمومه وخصوصه بأنه شرع من الله تعالى الذي خلق كل نفس وسواها : ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)**﴾ [الشمس] .

---

(١) رواه النووي وقال : حديث حسن ، وقيل : حديث حسن صحيح .

كما أن توجيهات الرسولﷺ بحسن التعامل مع الناس يحتل مكانة عالية ورفيعة في توافق الأمر مع طبيعة الخلق ، غير بعيد عما فطر عليه الإنسان من الخير ، مبيناً في كل خطوة المصالح التي من أجلها فرض الحلال والحرام ، فليس فى الإسلام من قهر للنفس البشرية على ترك أمر فيه خيرها أيضاً ، وهذا التوازن المتوافق مع فقه العبادات ينطبق على فقه المعاملات ، فهو فقه متوازٍ متوازن لا إفراط فيه ولا تفريط ، يحفظ الحقوق ويثبتها وينميها بالحلال بعيداً عن الظلم وعن الترفع وعن الاستغلال والجشع والقهر والبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

إن روح التشريع الإسلامي تظهر في تصرفات الناس بعضهم ببعض ، فليس الأمر منوطا بفئة دون فئة ، ولا فرد دون فرد ، ولا قوي دون ضعيف ، ولا رئيس دون مرؤوس ؛ فهم في المعاملات سواء ، وهم أمام الشرع متساوون . خطب الصّديقُ يوماً فقال : أيها الناس ، لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتموني على حق فأطيعوني ، وإن رأيتموني على باطل فقوموني ، وكررها الخطاب يوماً على مسامع الناس وقال : إن ملت بكم هكذا وهكذا فقوموني .. فوقف رجل وقال : يا عمر والله لو ملت بنا هكذا أو هكذا لقومناك بسيوفنا هكذا .. فقال عمر : الحمد لله الذي وجد في رعية عمر من يقوم عمر ، وردد مقولة المرأة التي أوقفته عندما أراد أن يتدخل في قضايا المهور قال : أصابت امرأة وأخطأ عمر .

وكان التطبيق العملي لفقه المعاملات الفيصل في مسار أمة الإسلام على مدار تاريخها الطويل . إن الشرع الإسلامي المتكامل المتنامي ، هو البلسم الشافي لكل المشكلات القائمة سواء في المجتمع الإسلامي ، أو في التعامل مع المجتمعات الأخرى التي كان لها علاقة مباشرة معها وتعتنق غير دين الإسلام ، بدت الأمة إذن كظاهرة تؤطر للجماعة السياسية على مستوى الحدث ، والفصل السياسي ، جاءت تفرض نفسها على الساحة السياسية في كافة الأصعدة سواء محلية كانت أم إقليمية أم دولية – عالمية .

٣- بناء الدولة :

الرسول ﷺ كان على رأس أمة الإسلام فهو الموحى إليه من ربه لإرساء دعائم هذه الدولة ، وإقامة بنيانها لتحتل موقع الخيرية الذي أراده الله تعالى لها ، وكان ﷺ في تطبيق أحكام الله التي يوحى بها إليه صادقاً منفذاً مؤمناً مؤتمناً على كل صغيرة وكبيرة ، مقيماً الحدود على نفسه وأهل بيته والأقربين من عشيرته .. قال ﷺ :" يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئاً .. "وقال : والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " .. منوهاً ﷺ لمن سبقه من الأمم ، كانوا إذا سرق القوي تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد .

بناء الدولة في ذلك الزمان ، وتلك الحقبة كان المثل لما كان يجري في الأمم المعاصرة ، سواء الإمبراطوريات الكبرى ، الفرس والروم ، أو الممالك العربية التي كانت صورة ممسوخة مصغرة عما كان يفعله الأباطرة والقياصرة ، والقبائل العربية التي كانت تحكم بالعرف القبلي المتداول آنذاك . فجاء الإسلام محققاً المفاهيم التالية :

أ – الأخذ بمبدأ الشورى،وهو ما لم يكن في ذلك الوقت،ولو أنه كان ما يشبهه بمجالس الحكم والوزارة ومجالس القبيلة،ولكن الأمر في النهاية يعود إلى القيادة العليا التي تستوحي أمرها من نفسها.. لكن مبدأ الإسلام أن الرسول ﷺ كان يتلقى الوحي ليكون الفيصل في كل أمر ، وأحياناً كان يخالف اجتهاد الرسول ﷺ كأسرى بدر وغيرها من المواقف ، وكذلك عقد غطفان في حصار المدينة في غزوة الأحزاب . ومبدأ الشورى قرر في كتاب الله بقوله تعالى : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩)** ﴾ [آل عمران] .

ويمدح الجماعة المؤمنة بقوله تعالى ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾ [الشورى : ٣٨] .

ب – الاستفادة من كل طاقات الصحابة عندما توافق اجتهاداتهم مسار الإسلام وروحه ومنهجه ، وهذا ما ظهر في أكثر من مقام عندما أبدى الصحابة رأيهم فوجد فيه الخير ، وهذا مبدأ العمل المؤسس في بدايات ظهوره ، وبناء الجماعة المؤمنة ، كرأي الحباب بن المنذر بتغيير موقع جيش المسلمين في بدر ، وكذلك الوقوف على كثير من الآراء الأخرى كحكم سعد بن معاذ في بني قريظة ، ورأي سعد أيضاً بعدم مهادنة غطفان في غزوة الأحزاب ، ورأي أم سلمة بأن يقصر الرسولﷺ وينحر بعد توقيع صلح الحديبية .

ج – الاستفادة من التجارب التي لم يكن العرب يعرفونها ، وتطبيق ذلك على الواقع واتخاذ الإجراءات الضرورية لذلك كحفر الخندق الذي أشار به سلمان الفارسي فلما وقف العرب عليه قالوا : هذه مكيدة ما كان العرب يكيدونها ، وكذلك بتغيير أساليب القتال في كل معركة من المعارك ، بعد أن كان الأمر مقتصراً على الكر والفر ، فجاءت قضايا كثيرة كرص الصفوف ، والمباغتة ، والدفاع ، والإعداد وتقسيم الجيوش إلى كتائب ــ في فتح مكة ــ وهذه القضايا التي ما عرفها العرب ساعدت على انتصار المسلمين في الكثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم .

د – التنظيم المالي للجماعة المسلمة وربطها بقضايا لم تكن تعرف قبلها كالمؤاخاة ، والنصرة ، والإيثار والمحبة والفداء والصدق والأمانة ، والصبر والشجاعة ، وعلو الهمة وقوة الإيمان ، فأشار القرآن إلى أن الإعداد للجماعة كان على مستوى من السمو والرفعة بقوله تعالى : ﴿ **يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ**

حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾ [الأنفال] .

وجاءت هذه الآيات بعد صفات أخرى وصف الله بها الجماعة المسلمة .. قال تعالى : ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) ﴾ [الأنفال] .

وتتوالى الآيات بوصف الجماعة المسلمة بصفات الخير وصفات الكرم والإيمان قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنْكُمْ وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال] .

هـ ـ العلاقات المتميزة مع غير المسلمين من أهل الكتاب والمشركين ولعل سورة الأحزاب تظهر علاقة الحرب كما سيأتي لاحقاً والتوبة ، العلاقة بعد ذلك مع غير المسلمين من المشركين والكفار والمنافقين ، وما كانت هذه العلاقات بهذا التنظيم وهذا السمو الخلقي والتعاون الخلاّق الذي لم يُسْبَقْ المسلمون إليه وكانت هذه العلاقة وهذه المعاملة الكريمة سبباً لدخول الكثيرين في الإسلام أفراداً وقبائل وشعوباً ، وقد حوت أخبار الإسلام الأول في العهد المدني العديد من المواقف التي تعتبر بحق من أجل العلاقات المطلوبة بين الشعوب ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ [الحجرات] .

لم تكن العلاقات في السابق إلا علاقة استعلاء واستعباد وقهر وظلم فجاء الإسلام ليرفع الظلم عن الناس ويخلص العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد الأحد بقوة تعبير صادق لا يخاف منها المسلمون عظمة العباد وقوتهم وجبروتهم ، وهذه الرسالة التي أعطاها ربعي بن عامر لملك

الفرس عندما أخبره علناً : بأن الإسلام جاء ليخلص العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد . وقصص أخرى أطول وأكثر ، ومواقف تعتبر من البدائع والنوادر في تاريخ العالم ؛ كانت لدى المسلمين الذين رباهم النبي ﷺ التربية المثلى في هذا العهد الذي لم يطل أكثر من عشر سنوات ، كانت كافية لتحقيق كل الأسس والصفات المطلوبة لخير أمة فرادى وجماعات ، وجماعة مسلمة كانت هي خير أمة أخرجت للناس .

٤ ـ الإذن بالقتال :

كان العهد المكي - وهو الأطول في حياة دعوة الإسلام - عهد بناء الأفراد وبناء الجماعة المسلمة ، و لم يكن المسلمون متمكنين في الأرض فهم يخطون تحت سيطرة عدوهم ؛ قريش والكفار منها الذين بقيت لديهم قوة كافية للهيمنة على تحرك سريع ـ على الأقل ـ للمسلمين ، و لم يكن المسلمون في هذا الحال أكثر من قوة بشرية لا تملك إلا الصبر والثبات ، على الرغم من ازدياد عددهم المتنامي ، حتى دخل الإسلام رجال أقوياء كحمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ، هذا الأمر أعطى دعماً معنوياً كبيراً للمسلمين ؛ لكنه لم يكن نقطة تحول كبرى في مسار الدعوة ، إذ أن كلا الرجلين خرجا مهاجرين إلى المدينة ليكون لهما ذلك التأثير الفاعل في مجريات المعارك التي خاضاها ، ولو أن حمزة كان بطل بدر وأحد ، لكنه استشهد بضربة غدر من الظهر تخصص لها رجل من رماة الرماح الأحباش ألا وهو وحشي العبد الذي كلف فقط بهذه المهمة في أحد ، إلا أن عمر بن الخطاب تابع المسيرة ، وكان له الدور الفاعل والمؤثر في بناء صرح أمة الإسلام .

هذا الواقع في مكة لم يكن يستوجب القتال الذي عرف بعد ذلك في المدينة ، حيث إن الله تعالى قد أعطى الإذن بالقتال للمسلمين في المدينة ، وبعد أن استقر بهم المقام هناك وبنيت الأمة المسلمة في ذلك العهد .. ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ(٣٩)** ﴾ [الحج] .

وبعد هذا الإذن بادر الرسول ﷺ إلى التعرض لقريش بالسرايا التي بثها في كل مكان ، خاصة على طريق تجارة قريش إلى الشام .. وكانت هذه السرايا قد أوقعت الرعب في قلوب المسافرين للتجارة ؛ الذين سيطروا على أموال المهاجرين من المسلمين بعد أن كسبوا أموالهم وديارهم وأملاكهم ووظفوها في تلك التجارة ، فأمر الرسول ﷺ جماعة المهاجرين أولاً بالتصدي بأعداد ليست بالكثيرة لمصالح قريش التي تضطر لأن تمر بمدينتهم أو حولها ، و لم تكن غزوة بدر إلا واحدة من هذه السرايا ذات الأهداف المحددة ، وهو محاولة استرداد حقوق أولئك المهاجرين الذين خرجوا

من ديارهم في سبيل الله : ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥) لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧)﴾ [آل عمران] .

و لم يطل المقام باليهود المعاهدين ، فتحركوا عندما وجدوا أن مصالحهم قد تأثرت بقيام هذه الدولة من ناحيتين .. الأولى : عقائدية فقد كشف القرآن أكاذيبهم وتحريفهم الكتاب ، وكذبهم على الله وقتل رسله ، والفساد في الأرض ، والثانية : وجدوا بتحقيق الانتصارات على قريش فرصة سانحة للنيل من هذه الجماعة الجديدة فكانت مواقع أدت إلى هزائمهم المتلاحقة في بني قينقاع وبني النضير ، وبني قريظة ، وفتح خيبر وتساقطت مواقعهم الواحدة تلو الأخرى في مواقع أبدى فيها بعض اليهود ــ وهم قلائل ــ انتسابهم إلى نبوة موسى الحقة بأن صدقوا الله ورسوله .

أما عن قريش فقد دام الصراع معها ثلاثة أرباع الفترة المدنية وتزيد . أشهرها في معارك بدر وأحد والخندق والحديبية وفتح مكة ، حيث زالت دولة الشرك بعد ذلك إلى غير رجعة ، وتفرغ النبي بعد ذلك وفي فترة جد قصيرة للحرب مع العرب من غير قريش ، ومنهم المتحالفون مع الروم، و لم ينته العهد المدني إلا وجزيرة العرب قد خضعت كلها تقريباً لسيطرة المسلمين ، حيث بدأت عملية تنظيم الإدارة في البلاد المفتوحة ، والتعامل مع القبائل المسلمة أو المعاهدة من العرب وغير العرب ، أما عن قانون الحرب فلم يذكر قبل ولا بعد الإسلام تعامل محاربين بما تعامل به المسلمون من حيث مقاتلة المقاتلين ، ومعاملة الأسرى ، وعدم محاربة المسلمين للرجال المتقدمين بالسن والأطفال والنساء ، وعدم قطع الأشجار وقتل الحيوانات وتخريب المنشئات إلا ما كانت ضررا على المسلمين ولو كانت "مساجد " مثالها " مسجد ضرار " : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)﴾[التوبة].

وما كانت حروب المسلمين حروباً تقليدية ولكنها كلها كانت دفاعاً عن النفس ودفع الشر أمام نشر الدعوة في الدنيا ، وكانت تحصيل حاصل لكل العروض التي تسبق الحروب عادة من طلب الإسلام أو الجزية أو العهد أو الحرب ، وكانت معاملة الأسرى من أروع ما عومل به أسير في تاريخ الحروب في العالم ، حتى دعا الأمر المفكر الفرنسي ((غوستاف لوبون)) أن يقول : ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب . وكان الوفاء بالعهود مثلاً يحتذى في كل خطوة خطاها المسلمون ، وكان عهد المسلمين أخباراً تروى في السمو والوفاء مارسها الرسول ﷺ ومارسها الصحابة والتابعون والمسلمون في كل العصور إلى درجة عالية سامية ؛ فالرسول رد أبا جندل المسلم إلى أبيه سهيل بن عمرو المفاوض الأول في الحديبية لمجرد كتابة العهد ، وقبل توقيعه .. وهو مكبل بالحديد ويصيح بالمسلمين أن ينقذوه بعد أن تمكن من اللحاق بالمسلمين .

هذه بداية ؛ لكن الذي تلاها من أحداث كانت تطبيقاً فعلياً للعهود التي أبرمها المسلمون مع كل الشعوب التي تعاملوا بها ، واعتبر ذلك خاصية اختص بها المسلمون دون سواهم ممن كتب الله لهم أن يسيحوا في الأرض ، ويتعاملوا مع الناس على اختلاف معتقداتهم وأزمانهم وبحسب الروابط التي ارتبطوا بها ببالغ الوفاء وحسن الأداء والأمانة التي أداها المسلمون أسوة بنبيهم ﷺ ؛ الذي أدى الأمانة ، وبلغ الرسالة ، وترك الناس على المحجة البيضاء لا يحيد عنها إلا هالك .

من أجل هذه الصفات ، ومن أجل هذه المعاملة ، دخل الناس في دين الله أفواجاً في فترة زمنية تعتبر بحق معجزة العصور كلها دون استثناء ودون إبطاء ، واستمرارية انتشار الرسالة في كل زمان وحتى اليوم إنما هو استجابة لتعامل المسلمين مع الناس بما أمرهم الله تعالى بالوفاء بالعهد ، والصدق، والأداء بإحسان إلى جميع بني البشر .

تعتبر قضية الجهاد في الإسلام فرضاً شاملاً أو خاصاً وذلك حسب ما تقتضيه الظروف والأحوال التي تجد أو توجد . وانتصار المسلمين كان وما يزال حتى الساعة انتصار الفئات القليلة العدد ، القليلة العدة ، على أعدائها الذين يفوقونها بأعداد وأحجام تفوق الخيال ، وليس هذا فقط في عهد النبوة ، وعهد الصحابة وعهد التابعين ، وعهد الإسلام المتنامي حتى في فترات تسلط المنحرفين على مقاليد السياسة والقيادة ، واستغلال الشعوب الأخرى البربرية هذا الضعف كهجوم الصليبيين والمغول ، والتتار ، والاستعمار الحديث وغيره من المصائب ، فإن أمر الأمة بقي مرهون بإرادة الله ، فالنصر من عنده ، وهو الذي أيد المسلمين بجنود لم يروها وملاحم التاريخ في كل العصور التي سطرها المؤرخون ومن غير المسلمين تبين هذا الذي ناله المسلمون بحسن سيرتهم ، وحسن جهادهم ؛ ومن ثم فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة كما أشار الرسول ﷺ ، وليس يوماً أو

بعض يوم وينتهي ويقف ، فليعلم الدعاة اليوم – والذي أوكل أمر الإسلام إليهم – أنهم مكلفون بهذا الأمر حتى يحقق الله على يديهم أو على أيدي أقوام غيرهم هذا النصر المبين .

٥_ بدأ الأمر بالعلم :

مع أول كلمة اتصل بها خبر السماء بالأرض ، وكانت أول لفظة وردت بل أول كلمة وهي (اقرأ) مفتاح الإسلام ، مفتاح القرآن ، مفتاح أمة الإسلام ، مفتاح خير أمة أخرجت للنـــاس ، وتوالى الأمر بالتعليم والقراءة والعلم والتفكر والتدبر ، والإبداع ، والاختراع وتخصيص العلوم ، وبلوغ العلماء بقدر لا يمكن لأمة أن تتحول بهذا الشكل من أمة أمية إلى أمة عالمة في فترات جاء الأمر بها أكبر من طاقة التحول ، لكن هذا الأمر ظهر جلياً في العهد المدني ، عندما فرض العلـــم على كل مسلم ومسلمة واستفاد المسلمون من طاقات الآخرين حتى الأسرى الذين جعل فداءهم تعليم عشرة من فتيان الأنصار ، وكانت نقطة الانقلاب الفكري الخطير في تاريخ الأمة ، وإذ برز العديد من العلماء في مختلف التخصصات لعلوم الدين والدنيا ، والأخطر من كل هذا أن المسلمين قد حفظوا تراث الشعوب الأخرى و لم يدمروها أو يحرقوها أو يغرقوها ، ولولا المسلمون لبـــادت الكثير من الحضارات في العالم القديم ، لكن المسلمين حفظوا علوم السابقين وطوروها ودرسوها ونقدوها ، والمسلمون أول من سلك طريق البحث العلمي وبين طرقه وأصوله ، وبين أصول كل علم ليقطع الطريق على المتنطعين والدجالين والجهلة ليدسوا في علوم المسلمين بعضاً من الهرطقات التي كانت تلف العالم ، وهذا الاختصاص حفظ لنا القرآن الكريم من غير تحريف ولا تأويـــل ولا إضافة أو حذف ، وهذا ما لم تنج منه الكتب السابقة ، فقد تكفل الله تعالى بحفظه وَحَفَظَهُ علـــى أيدي العلماء الأجلاء الذين بدأ الجيل الأول منهم في العهد المدني ؛ وإليهم يعود الفضل بنقل العلم إلى التابعين الذين حملوا الأمانة وأدوها بأمانة ، وهكذا كان كل جيل يقدم للذي يليه هذا الـــدين بكل وضوح وبكل جلاء وصدق .

فالعهد المدني كان عنواناً صادقاً لتقدم العلوم والتعلم والتعليم والحفظ وكل ما ارتبط بالعلم من صدق وعدل وفهم وتفسير وبأمانة .

٦_ جيل الصحابة :

جيل الصحابة هم أولئك الرجال الذين آمنوا بالإسلام منذ أن ظهر وحتى وفاة الرسول ﷺ ، وهم الذين آمنوا به وصدقوه ، وحملوا الرسالة من بعده ، فمنهم من قضى نحبه في عهد الرسول ﷺ في جهاد أو مرض ، أو كبر سن ، والأكثر هم الذين بقوا بعده ﷺ ونشروا الإسلام في الخافقين . تميز هذا الجيل بميزات عظيمة ، قل أن اجتمع بهذا العدد مع نبي إيماناً خالصاً ، ويقيناً بيناً ، وعلماً ،

وحفظاً ، واتباعاً ، وطاعة ، واجتهاداً ووعياً لعظمة الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ ، وهذا الجيل لم يتكرر في التاريخ ، ولو أن أفراداً وجماعات قليلة وجدت في فترة من فترات التاريخ من قبل : "**مثلهم في التوراة والإنجيل** " ومن بعد ، فالمؤمنون الصادقون متواجدون في كل فترة وزمان ومكان . هذا الجيل تمكن بالصفات التي اتصف بها أن يغير وجه الدنيا في وقت قصير جداً ، لا يكفي عادة لجزء بسيط من عظائم ما أنجزه الصحابة في الزمن القصير ، ولذلك فإن جيل الصحابة رضوان الله عليهم يعتبر الأمثل في تاريخ الإنسانية في السابق أو في اللاحق ، إلى درجة متناهية في العظمة والمثالية والخلود .

صحابة الرسول في مكة كانوا من منبت واحد .. من أهل مكة أو بعض الموالي فيها ، وانتقل هؤلاء برمتهم إلى المدينة لينضم إليهم أهل يثرب ومن والاهم أو هاجر إليهم من أي مكان ، وبذلك فقد تم انصهار هؤلاء الذين جاءوا من مشارب متفاوتة ، جاء هؤلاء ليشكلوا الجيل الفريد في التاريخ الإنساني كله . ثم زاد العدد بانضمام الكثيرين من غير هؤلاء من قبائل شتى من اليمن ومن الشام والعراق ونجد ، ممن وصلتهم الدعوة .. لكن المهم في كل هؤلاء أن تتوفر لهم صحبة النبي ﷺ ، وليس مجرد الإيمان بغير صحبة ، فمن جاء مهاجراً إلى الله ورسوله ورضي عنه الرسول ﷺ فقد فاز بالصحبة ليكون من هذا الجيل لقد تميز العهد المدني بتوافد الكثيرين إلى يثرب من جميع الأنحاء ، من قادة عظام ، وعلماء ، وحكماء ، ومحاربين ، ومعلمين فكان هذا الجيل المتميز الذي بنى الأمة ، ورص بنيانها ، واستجاب لله وفي سبيل الله . فهم الخيرة ، وهم القادة ، وهم المعلمون ، وهم الولاة،وهم الرسل،وهم وهم وهم .. كل ما يحتاج بنيان الأمة من طاقات توفرت في هذا الجيل ، جيل الصحابة رضوان الله عليهم،فكان لهم الباع الكبير ، والأثر الأكبر في فهم دين الإسلام وحمله ونشره والدعوة إليه،وفي اتباع أفضل السبل للوصول إلى هذه الغايات .

وهكذا فقد كان للعهد المدني الأثر الواضح في تكوين خير أمة أخرجت للناس وهو على قصره فقد نزل فيه التشريع ، واكتمل به القرآن ، وانتهت مهمة الرسول ﷺ في الأرض ليفارقها إلى جوار ربه راضٍ عما ترك ، راضٍ عما بلّغ ، ليدع الإسلام يتحكم في الأرض ، ويعطي الإنسان إنسانيته ، ويرفعه من مدارك التبعية إلى مدارك المساواة وإعمار الأرض ، وتحقيق خلافة الله تعالى فيها ، في دين خاتم على لسان رسول خاتم في زمان ختمت به صلة السماء بالأرض ، لأن ما بقي أنزل محفوظاً ليكون للعالمين نذيراً ، ولكل من يرغب أن يكون جندياً في مجموعة بشرية كانت خير أمة أخرجت للناس .